الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة-

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الرقم التسلسلي :

رقم التسجيـــل : 05/م/آ. ع.إ/ت/04

الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر

إعداد الطالب :

زكريا العابد

إشراف الأستاذ:

الدكتور احميدة عميراوي

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاستاذ	الرتبة	المؤسسة الاصلية	الصفة
01	أ.د /عمر بن خروف	أستاذ التعليم العالي	جامعة عنداية	رئيسا
02	أ.د/احميدة عميراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا و مقررا
03	الدكتور حنيفي هلايلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بالعباس	عضوا
04	الدكتور خليفة حماش	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

1428 هـ /2007 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرّحيم

مقدمـــــة

لقد كانت البدايات الأولى للوجود العثماني في الجزائر منعطفا حاسما في بروز أهمية الرحلة نحو الجزائر خاصة الأوروبية منها، وتجسدت قيمتها أكثر خلال الفترة العثمانية، واستمرت إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي، الذي أنهى ذلك التواجد الذي دام أكثر من ثلاثة قرون 1519-1830[1]. هذه الرحلات هي نتاج زيارات قام بها الأوروبيون تحت ظروف عديدة ومختلفة، مكنتهم من الإقامة بالجزائر والكتابة عنها ووضع التآليف حولها بعد عودتهم إلى بلدانهم.

---

[1]- اختلف المؤرخون الذين درسوا الفترة العثمانية في تحديد بداية التواجد العثماني بالجزائر فكورين شوفالييه (Corinne Chevalier) حددت الفترة من 1510 إلى 1830 في كتابها:

Les trentes premières années de l'état d'Alger, O.P.U, Alger, 1986. وصالح عباد في كتابه ***الجزائر خلال الحكم التركي،*** دار هومة، الجزائر، 2005 يحدد الفترة من 1514 إلى 1830 بينما ذهب دو غرامون (H-D.de Grammont)إلى اعتبار سنة 1515 سنة بداية التواجد العثماني بالجزائر في كتابه المعروف ***Histoire d'Alger sous la domination turc***, Bouchene, Paris, 2002 غير أن ناصر الدين سعيدوني يعتبر سنة 1516 هي السنة الفعلية لبداية هذا التواجد انظر: ***دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني).*** م.و.ك، الجزائر 1984 خلافا للمنور مروش الذي يضع سنة 1520 كبداية للدخول وانضمام الجزائر للعثمانيين،انظر:

Lemnouar Merouche, Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane (I.monnaies, prix et revenus), Bouchene, Paris, 2002

وقد اعتمدت وزارة التربية الوطنية مؤخرا في كتب التاريخ المقررة سنة 1519 كبداية للدخول الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية، اعتمادا على رسالة أهالي الجزائر للسلطان العثماني سليم الأول المؤرخة في أوائل ذي القعدة عام 925 للهجرة الموافق للفترة من 26 أكتوبر إلى 03 نوفمبر 1519.

ولأن هذه الرحلات تعد من المصادر الهامة لكتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني فقد اتبعت منهجا وصفيا تحليليا للمادة الخبرية التي تركها الرحالة الأوروبيون مقارنا لها في الوقت نفسه مع الرحلات المحلية والعربية، وحتى الأوروبية نفسها إذا كانت متزامنة معها ما أمكن إلى ذلك سبيلا. وهذا للوقوف على مدى صدقية الرحلات الأوروبية في وصفها للواقع السياسي والاجتماعي كما كان معاشا وإلى أي مدى تعرفنا كتب الرحالة بالحياة المختلفة الجوانب للمجتمع الجزائري، وهل الرحالة الأوروبيون يقولون الحقائق أم يبالغون أو ينقصون وهل قولهم للحقيقة بدافع الإنصاف للعلم أم خدمة لأطماعهم، لكون بعضهم ليسوا سوى جواسيس عملوا على تعبيد الطريق للاستعمار الأوروبي، وهل كرههم للمسلمين وتعصبهم ضدهم وكذلك غاية بعضهم لجمع التبرعات عبر شحذ العواطف وتأجيجها جعلهم يكذبون ويزورون ويحرفون الحقائـــق؟

لقد أردت من خلال هذا البحث ومن كتب الرحالة التي درستها كنموذج، أن أكشف جانبا من الحقائق المهمة التي قد تخدم باحثي هذه الفترة ودارسيها.

ولكن لماذا تلك الرحلات الأوروبية التي ربما تكون مستغلة إلى أقصى حد ولا تأتي بجديد ؟ ولما لم يكن هذا التوجه عوضا عن ذلك إلى سجلات ووثائق العهد العثماني الغزيرة التي مازالت تنتظر من ينفض الغبار عنها ؟

لقد كانت تلك أمنيتي منذ أن سجلت في الدراسات العليا، خاصة وأنني أحسن التعامل إلى حد ما مع اللغة العثمانية بالحرف العربي واللغة التركية الحديثة بالحرف اللاتيني نتيجة دراستي لهما طوال ثلاث سنوات خلال التخصص في الليسانس ثم السنة التحضيرية للماجستير. وهو المطلوب منا نحن الطلبة الذين تخصصنا في تاريخ الجزائر العثمانية. إلا أنني سرعان ما تراجعت عن ذلك أسفا،

وفضّلت إرجاء ذلك إلى مرحلة لاحقة لأسباب عديدة أهمها:

أولا- صعوبة تحقيق ذلك،وما سيستغرقه من جهد ووقت،لا تسمح به المدة المخصصة للبحث.

ثانيا- صعوبة اللغة العثمانية التي كتبت بها الوثائق العثمانية حتى على الأتراك أنفسهم،لأن التركية اللاتينية هي غيرها بالحروف العربية من حيث قواعدها وتعابيرها، وإن كانت تلتقي معها في كثير من التعابير، وما يتطلب ذلك من وجوب السفر إلى تركيا للتعمق في دراستها،وما يستدعي ذلك من إمكانات مادية كبيرة لا أستطيع تحملها.

ثالثا- حبي الشديد للسفر والارتحال،وهذا بالرغم من أنه سبب شعوري حسي غير مبني على أسس علمية أكاديمية إلا أنني لا أنفي أنه كان عاملا حاسما في تحول مسار بحثي.وربما ولعي الشديد بقراءة كتب الرحلات،والذي سيساعدني لا محالة في موضوع الدراسة،هو خير شافع لي.

وعليه وبمجرد أن اقترح علي أستاذي احميدة عميراوي رحلات الأوروبيين موضوعا للدراسة،حتى وافقت عليه على الفور، وقررت العمل عليه لأهميته،وللمبررات الآتية:

1 – سينفي أو يؤكد ما يمكن توقعه من دس وزيف.

2 – سيكشف الغموض عن كثير من الحقائق التي لا زالت مجهولة حتى الآن.

3 – سيربط علاقات علمية جديدة مع البلدان الأوروبية التي تحوي هذه الرحلات، أو كانت منطلق الرحّالة في سفرهم،والجزائر البلد الذي نسجت أفكار تآليفهم في ربوعه.

4 – إمكانية الوصول إلى مصادر جديدة لم تنشر بعد تكُون مجالا جديدا لدراستها واستغلالها،أو مصادر نشرت و لم تترجم إلى لغات مقروءة في الجزائر.

وقد تبيّن لي خلال الدراسة من خلال المادة الخبرية التي جمعتها أن الموضوع طويل جدا؛ لأن دراسة العهد العثماني بمختلف جوانبه،وفي ظرف وجيز غير ممكن في صفحات معدودة،وبالتالي فهو إقدام ليس في محله ولما كانت رحلات الأوروبيين كثيرة فضّلت

الاقتصار على ثلاث رحلات أساسية دون إهمال لباقي الرحلات، وتتمثل هذه الرحلات في رحلة دارندا (E. D'aranda) البلجيكي ، وشو(T.Shaw) الإنجليزي، ودوبارادي (V.De Paradis) الفرنسي.على أمل أن أعالج وأستكمل ذلك في موضوع الدكتوراه،باعتبار الماجستير مرحلة أساسية لإعداد الدكتوراه وفقا للمرسوم رقم 98- 254 المؤرخ في 17 أوت 1998.

فالموضوع له بداية محدّدة ضمنيا بتاريخ أول رحلة أوروبية في البحث،وهي رحلة دارندا سنة 1640 وبتاريخ آخر رحلة مدروسة،وهي رحلة دو بارادي سنة 1788.

أي من منتصف القرن السابع عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر،والهدف تتبّع صورة الجزائر خلال هذه الفترة كما رآها هؤلاء الرحّالة،وكل هذا يعد مجرد ملامسة ونقد بسيط لما كتبه هؤلاء دون تحليل مستفيض ليكون بالأساس منطلقا للدكتوراه.

وقد عالجت الموضوع من خلال أربعة فصول،حيث تناولت في الفصل الأول تعريف الرحلة وأنواعها وبداية الرحلات الأوروبية نحو الجزائر وأهميتها ودرجة الاعتماد عليها، وأفردت الفصل الثاني لدراسة دوافع رحلات الأوروبيين نحو الجزائر، أما الفصل الثالث فتحدثت فيه عن الجوانب التي تناولتها الرحلات الأوروبية عن الجزائر، وخصصت الفصل الرابع لتراجم أشهر الرحالة الأوروبيين مع مقتطفات من رحلاتهم.

ويبدو أن هذا الموضوع جديد في كلّيته لأنه كتب بالعربية،والدراسات السابقة له، والتي تناولت مواضيع مشابهة أو مماثلة كانت بالفرنسية ومن وجهة نظر غربية، وتأتي في مقدمة تلك الدراسات أطروحة الدكتوراه التي قدمها توربت غ دولوف .G) (Turbet – Delof.حول إفريقيا البربرية (شمال إفريقيا) في الأدب الفرنسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جنيف 1973، ثم أطروحة الدكتوراه لدونيز براهيمي (Denise Brahimi) حول الرحّالة الفرنسيين في بربارياBarbarie ( )خلال القرن الثامن عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة باريس 3 ، 1976، والتي اعتبرت تتمة للعمل الأول، والدراستان اهتمتا بأدب الرحلات، وكذلك شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ

الحديث لفانسون مايزي (Vincent Meyzie) حول تونس والجزائر في رحلات الفرنسيين في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، بجامعة بوردو3، 1998.

ويلاحظ أن هذه الدراسات تناولت ما كان يطلق عليه في ذلك العهد الدول البربرية (Barbarie أو Etats Barbaresques)أي دول شمال إفريقيا من خلال كتابات الفرنسيين بالذات،وقد غطت القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلادية، و لم أعتمد في بحثي هذا على أي من هذه الدراسات القيمة؛لأني لم أحصل سوى على معلومات عامة عنها في المجلات،وصفحات الإنترنيت.ماعدا دراسة أخرى لدونيز براهيمي (Denise Brahimi) نشرت بالجزائر عام 1978 حول آراء ونظرات الأوروبيين على المغرب (بمعناه الواسع) في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

وفي ما يلي تحليل لأهم المصادر التي اعتمدت عليها لإنجاز هذه الدراسة،وهي كلها مختصة بأصحاب الرحلات الذين أقاموا في الجزائر في فترة ما كانوا فيها أسرى أم أحرارا وذلك لارتباط الدراسة بهم.

1- رواية الأسر والحرية لإمانويل دارندا الذي كان أسيرا بالجزائر
(*Relation de la captivité et liberté du sieur Emmanuel d'Aranda jadis esclave a Alger*) وهو من أفضل المؤلفات التي تكلمت عن الرق والفداء، ولد دارندا ببروج (Bruges) سنة 1614،وتعود أصوله إلى إسبانيا،وقد وقع في الأسر سنة 1640 حيث مكث سنتين في الأسر.ألف بعدها كتابه الذي تكلم فيه كثيرا عن الأسرى وعلاقاتهم بالمحيط الذي يعيشون فيه، واعتبر سجن مدينة الجزائر بمثابة أحسن جامعة تعلم الناس شؤون حياتهم، وقد ألف كتابه باللغة الإسبانية ثم صدر باللغة الفرنسية لأول مرة في بروكسل (Bruxelles) سنة 1656 ، ثم أعيد إصداره مرات عديدة باللغات الفرنسية والفلامية واللاتينية والإنجليزية.

2- رحلة في إيالة الجزائر(*Voyage dans la Régence d'Alger*) للدكتور الرحّالة توماس شو(Thomas Shaw) يعتبر الإنجليزي شو من أشهر الرحالة الأوروبيين الذي زاروا الجزائر،حيث مكث اثنتي عشرة سنة 1720-1732.وزار بلدان المشرق والمغرب.نشر كتابه بأكسفورد سنة 1738. وقد تُرجم إلى الفرنسية سنة 1743 بمدينة

لاهاي (La haye) وعلق عليه مترجمه جون ماكارتي (J. Mac carthy) عضو الجمعية الجغرافية لباريس،ثم صدرت طبعات أخرى من بينها واحدة بالهولندية. درس شو خلال رحلته الجغرافيا القديمة للجزائر وأتمّها على ضوء المعطيات الجديدة المعاصرة من خلال ملاحظاته ووثائق رجال الدين الفرنسيين وسؤال الاختصاصيين بأكسفورد، كما درس المناخ ،والمنتجات الطبيعية ،والمساحات الزراعية المستغلة،ومجموع الحيوانات المختصة بالإيالة.

وبالرغم من العمل الضخم الذي أنجزه في بربارياء،إلا أنه لم يولي أهمية كبيرة في بحثه للعلوم الإنسانية والاجتماعية،نتيجة الازدراء الذي خص به كل العرب دون استثناء[1].

3- الجزائر في القرن الثامن عشر(*Alger au XVIII^{ème} siècle*)

لفونتير دو بارادي (Venture De Paradis) ولد بمرسيليا عام 1739 من أم يونانية وأب عمل كمترجم بالعديد من القنصليات بالمشرق بدأ دراسة اللاتينية والتركية والعربية وعمره 13 سنة بمدرسة اللغات الشرقية بباريس زار الجزائر عام 1788 كمبعوث حيث مكث سنتين وألف كتابه الغني بالتفاصيل التاريخية حول الإدارة الجزائرية والحياة الاجتماعية والاقتصادية.

4- تاريخ بربارية وقراصنتها (*Histoire de Barbarie et de ses corsaires*)

للأب بيار دان (Pierre Dan) الذي جاء إلى الجزائر في مهمة لافتداء الأسرى مبعوثا من قبل المؤسسة الدينية التي ينتمي إليها وقد تحامل على الجزائر وسكانها،" وبالغ في التهويل حول موضوع الأسرى كعادة آباء الرهبنة في التأثير على عواطف الأوروبيين للحصول على التبرعات التي كانت تتضاءل باستمرار"[2]. والكتاب صدر في باريس سنة 1637 في ستة أجزاء ثم أعيد إصداره في طبعة جديدة سنة 1649 تناول فيه دان حكومات وأخلاق

---

[1] -Denise Brahimi ,***Opinions et regards des Européens sur le Maghreb aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} siècles***, S.N.E.D, Alger, 1978, pp. 139-140.

[2] محمد خير فارس، ***تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي***، مكتبة دار الشروق، بيروت، د.ت، ص.120.

و قساوة و لصوصية وسحر سكان بربارياً -حسب زعمه- وخصّ القسم الباقي من كتابه،وهو الجزء الأكبر منه لكافة المآسي الكبيرة والعذاب الأليم الذي يعاني منه الأسرى المسيحيون وسط الكفار ! "وقد بلغ تعصبه العديم الذمة عندما تكلم عن سلالة الأندلسيين الملعونة! التي طردت من إسبانيا إلى الحد الذي أجاز فيه وبطيبة خاطر الرأي القائل أنه كان من الواجب إبادتهم جميعا"[1].

5- تاريخ مملكة الجزائر (*Histoire du royaume d'Alger*) للوجيي دو تاسي (Laugier de Tassy) الذي جاء إلى الجزائر سنة 1718 حيث مكث 5 أشهر ونصف غادر بعدها الجزائر، وبعد سبع سنوات عمل مفوضا للبحرية الفرنسية بأمستردام (Amsterdam) حيث نشر هذا الكتاب سنة 1725 والذي أدان فيه الأحكام المسبقة لغالبية المسيحيين ضد الأتراك والمسلمين، وتكلم فيه دو تاسي بصورة عامة عن الحكومة القائمة آنذاك والقوات البرية والبحرية والمداخيل والشرطة والعدالة والسياسة والتجارة.

6- التاريخ العام للجزائر وإراثتها

(Topographie et Histoire Générale d'Alger)

للمؤرخ والرحّالة دييغو دو هايدو(Diego De Haido) وهو أب من آباء الرهبنة إسباني الجنسية كان سجينا بالجزائر خلال 1578- 1581، فهو شاهد عيان على تلك الفترة من التاريخ العثماني للجزائر. وبالرغم من مسيحيته وتعصبه،فكتبه لحد ما معتدلة[2]،واعتبرت كتاباته أساسية لكل الكتابات الغربية اللاحقة عن الجزائر[3]. وقد ترجمه إلى الفرنسية عن الأسبانية كل من باربروجير (A. Berbrugger) و د. مونرو (Dr.Monnereau)، ونشرت الترجمة الفرنسية في المجلة الإفريقية سنة 1870-1871.

---

[1]- Denise Brahimi, *OP.cit*. p.14

2 – أبو القاسم سعد الله، *"النظم والمؤسسات في العهد العثماني"*، محاضرة ألقيت بجامعة الأمير عبد القاد على طلبة الدراسات العليا تخصص عثماني، بتاريخ 03 ماي 2003.

3- جون وولف، *الجزائر وأوروبا*، ترجمة أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص.462.

ومن المراجع الهامة التي اعتمدتها و استفدت منها كثيرا:

1- آراء ونظرات الأوروبيين حول المغرب في القرن 17 والقرن18، (***Opinions et regards des européens sur le Maghreb aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} siècles***) لدونيز براهيمي (Denise Brahimi) ومن خلاله تعرفت على مجموعة كبيرة من الرحّالة الأوروبيين.

2- كتاب الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية (***Şimalı Afrika' da türkler***)،الجزء الأول لعزيز سامح إلترء،وهو من المراجع التي تناولت حقبة طويلة من تاريخ الجزائر في العصر الحديث.وقد صدر بإستانبول 1937/1936 وترجمه محمود علي عامر عن التركية وقد ظهر بعد الجزء الثاني الخاص بطرابلس وتونس والذي ترجمه عبد السلام أدهم. وقد صدرت الترجمة العربية ببيروت سنة 1989.والمؤلف يجيد التركية والفرنسية والألمانية والروسية،واستفاد من المؤلفات الهامة العثمانية والألمانية والفرنسية، وكذلك الوثائق العثمانية وأهمها مهمه دفترى.[1]

ومع شروعي في البحث اعترضت طريقي العديد من العقبات المثبطة للعزائم والهمم.كدت على إثرها أنسحب نهائيا من الجامعة على الرغم من تعلقي الشديد بطلب العلم،لولا التزامي الأخلاقي مع المشرف الذي كان لي بمثابة الأب الروحي،والذي وقف معي في الأوقات العصيبة وآزرني. وكذلك إلحاح الأهل والزملاء علي في الاستمرار حتى الانتهاء من العمل.وقد عاد علي ذلك بالتعب النفسي وحتى المرضي،وأسهم في تأخير موعد تقديم البحث للمناقشة أكثر من سنتين،وأثر ذلك في القيمة العلمية لها.

ويمكنني أن أجمل هذه العوائق في أسباب خاصة أتحمل فيها النصيب الأكبر وأسباب خارجة عن إرادتي لا أتحمل وزرها، فمن الأسباب الخاصة معاناتي الأمرّين في التوفيق بين الدراسة والبحث، وعملي الحر الذي أزاوله لأعيل أسرتي والذي يأخذ مني

[1] – انظر: ملحق تعريف المصطلحات و الأسماء العثمانية.

جل جهدي ووقتي، إضافة إلى متطلبات الحياة المتعددة. وأما الأسباب العامة فعدم توفر العديد من المصادر[1]، وفي حالة توفرها صعوبة الحصول عليها[2]، وتقريبا جل المصادر الأوروبية لم تترجم إلى العربية ولغة كتابتها فرنسية قديمة مما يزيد في صعوبة استيعابها بسرعة وبالتالي بذل وقت أكبر لترجمتها[3].

وحتى الدوريات التاريخية المتخصصة غير متوفرة حتى في المعاهد والجامعات التي أصدرتها[4] وهذا بالرغم من احتوائها على مقالات[5] جد هامة ووثائق نادرة لا غنى عنها.

أما عن الهدوء الذي كنت أنشده في قاعات المكتبات هروبا من ضجيج وسط المدينة حيث أقطن، فقد كنت أواجه بالمعاملة السيئة للقائمين عليها وعدم سعة صدورهم لمرتاديها.

ومن سلبيات المكتبات نظام التوقيت الخاص بالعمل على فترتين صباحية وتكون عادة من 8:30 إلى 11:30 ومسائية من 13:30 إلى 17:00 حيث يتسبب ذلك في انقطاع حبل أفكار الباحث الذي يكون مستغرقا في العمل وبحاجة إلى وقت متواصل، وللأمانة

---

[1]- من المصادر التي لم أعثر عليها سوى في قوائم المصادر والمراجع وعند الإحالة على الهوامش رحلات كل من نيكولاي(Nicolay (Nicolas de ورهباندير. Rehbinder (J.A.F Von)

[2]- لقد ترددت مرارا على الأستاذ سليمان الصيد الذي حقق رحلة التمغروطي ونشرها، فلم أوفق في الحصول عليها لأنه لم يبق لديه إلا نسخة واحدة أعارها لأستاذ جامعي و لم يعدها إليه رغم إلحاحه.

[3]- على سبيل المثال لا الحصر رحلة بواري (l'Abbé Poiret)ورحلة مارمول (Marmol Carvajal) والتي لم أحصل منها سوى على بضع ورقات مصورة عن الترجمة الفرنسية وهي ترجمة غير أمينة قام بها نيقولا سامسون (N.Samson) في باريس سنة 1667 .انظر: حون وولف، المرجع السابق ، ص.463.

وقد تبين لي وجود نسخة مترجمة لكتاب مارمول إلى العربية عند انتهائي من البحث عند أحد أساتذة الجامعة بعد فوات الأوان.

[4] - نذكر من بينها: مجلة الدراسات التاريخية، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، مجلة التاريخ، مجلة الباحث والمجلة التاريخية للدراسات العثمانية. حيث أن عدد لا يستهان به منها متوفرة بتونس، مما سيسهل علي ذلك سبيلا.

[5] - مثال ذلك مقال لمولاي بالحميسي عن "الجوسسة الغربية في الجزائر 1518/1830" بمجلة الباحث عدد 3 ص ص. 16- 29 .

لم أجد أية مشكلة في ارتياد مكتبة الجامعة المركزية بقسنطينة، واستطعت العمل بها دون انقطاع من 8:30 إلى 17:00، والاستفادة من خدماتها في ظروف جد ملائمة.

وأخيرا فقد فوجئت بتجاهل مراسلاتي لمركز الأبحاث في أدب الرحلة(C.R.L.V.) بفرنسا ومؤسسة التميمي (Fondation Temimi) بتونس وكذلك وزارة الثقافة التركية على المواقع الإلكترونية الخاصة بهم[1] مستفسرا عن بعض القضايا التاريخية المتعلقة بموضوع بحثي.

[1] – و هي على التوالي :

http://www.crlv.org
http://www.fondationtemimi.org.tn
http://www.culture .gov. tr

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الرحلات الأوروبية والجزائر العثمانية

أولا- تعريف الرحلة وأنواعها

ثانيا-بداية الرحلة الأوروبية نحو الجزائر وظروفها

ثالثا-القيمة التاريخية للرحلات الأوروبية

رابعا-درجة الاعتماد على المادة الخبرية لهذه الرحلات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الرحلات الأوروبية والجزائر العثمانية

كانت الرحلة ولا زالت في أغلب الأحوال فعلا إنسانيا راقيا، يدل على درجة عالية من الوعي الحضاري، يعود عل صاحبه بفوائد جمة تؤتي أكلها في كل حين.فما "من شك أن السفر جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتحتشد بالعلم والمعرفة، وتشحذ العقل والوجدان، وتزيد في الفهم والإدراك، وتصقل الشخصية بفضل قساوة التجربة وحرارة المواقف ورهبة المغامرة، وطلعة الجديد في كل شأن ومواجهة المفاجآت وتحمل مشاق الغربة والسفر، والإطلاع على الطبائع المختلفة والاعتياد على الغريب والتمرس بمعاملته...و لم يَعدُ الكاتب الفرنسي سافاري الحقيقة عندما قال: إن الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"[1].

وقد جاء الحض على السفر والارتحال نتيجة لذلك، وهاهو القرآن العظيم يأمر بالسير في الأرض في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2] وفي قوله عز وجل:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[3] وكان بشر الحافي[4] يحث تلامذته

---

[1] -فؤاد قنديل، ***أدب الرحلة في التراث العربي***، الدار العربية للكتاب، ط.2 ، القاهرة ، 2002، ص.21.

[2] - سورة ***الأنعام***، الآية 11.

[3] - سورة ***الملك***، الآية15.

[4] - هو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن الزاهد المعروف بالحافي، أصله من مرو ولد ببغداد سنة 150هـ وتوفي يوم 20 ربيع الأول 227هـ عن الموقعين الالكترونيين:

http://www.islamweb.net و http://www.sahab.net

على ذلك فيقول:«يا معشر القرّاء سيحوا تطيبوا فان الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موضع تغير». وقد نظم الإمام الشّافعيّ[1] في ذلك أبياتا مطلعها:

مَا فِي الْمُقَامِ لِذِي عَقْلٍ وَذِي أَدَبِ ... مِنْ رَاحَةٍ فَدَعِ الأَوطَـــانَ وَاغْتَرِبِ
سَافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّنْ تُفَـــارِقُهُ ... وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ
إِنِّي رأيتُ وُقوفَ المَـــاءِ يُفْسِدُهُ ... إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِـــبِ

فالذين ينشدون الضرب في أرجاء الأرض،هم أصحاب العقول الراجحة والآداب الفاضلة والأخلاق السامية، والهمم البعيدة.فهم «يكرهون القرار حيث ولدوا، بل يمدون أبصارهم إلى أقطار الأرض البعيدة، يعجبهم التطواف في الآفاق، فلا يستهويهم مكان إلا بمقدار ما يستطيعون فيه أداء رسالتهم وإراحة ضمائرهم».[2]

ولقد كان المسلمون الأوائل يمثلون في غالبهم هذا الصنف من الناس خاصة في العصور الذهبية للحضارة الإسلامية، حين اتّسعت رقعة الدولة الإسلامية، وزاد نشاطها الاقتصادي والاجتماعي، فانطلقوا في أرجاء المعمورة، لا يعيقهم شيء في سبيل نشر الدين والاستزادة من العلوم والسعي في تجارتهم. ولكنهم سرعان ما تركوا هذا الدور الريادي لغيرهم من الأمم خاصة الأوروبيين الذين تحدوا الأخطار والصعاب، وانتشروا في أنحاء الأرض يكتشفون القارات الجديدة ويستخرجون خيراتها. «فقعد المسلمون في ديارهم حتى غُزُوا وذلوا. وتغرب الأوروبيون في قارات الأرض والأمم فسادوا وعزوا »[3] فرحلة كريستوف كولومبس (Christophe Colomb) التي جهزها ومَوّلها الملكان الكاثوليكيان فرديناند (Ferdinand) وإيزابيلا (Isabelle) سنة 1492م تزامنت مع سطوع نجم أسطول الدولة العثمانية، الذي كان له دورا بارزا في فتح القسطنطينية قبل ذلك بمدة ليست بعيدة أي سنة 1453م. والسؤال المطروح هو أين كان العثمانيون حين اكتشفت أمريكا وسارع الأوروبيون إلى اقتسامها؟

---

[1] – هو محمد بن إدريس الشّافعيّ، صاحب المذهب (150 -204ه).

[2] – محمد الغزالي، *ليس من الإسلام*، دار المعرفة ، الجزائر، د.ت، ص.216.

[3] – *المرجع نفسه*، ص.217.

أولا- تعريف الرحلة وأنواعها:

1- تعريف الرحلة لغة:

جاءَ في لسان العرب «وارْتَحَل البعيرُ رِحْلَةً: سار فَمضَى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارْتَحَل القومُ عن المكان ارتحالاً. ورَحَل عن المكان يَرْحَل وهو رَاحِلٌ من قوم رُحَّلْ: انتقل ؛ قال:

رَحَلت من أَقْصَى بلادِ الرُّحَّـــل من قُلَل الشِّحْر فَجَنْبِي مَوْحَل

ورَحَّلَ غيَره ؛ قال الشاعر:

لاَ يَرْحَل الشيبُ عن دارٍ يَحُلُّ بِها حَتَّى يُرَحِّل عنها صاحبَ الدارِ

ويُروى: عامر الدار. والتَّرحُّل والارتحال: الانتقال وهو الرِّحلة والرُّحْلَة والرِّحلة: إسم للارتحال للمَسير. يقال دنت رِحْلَتُنَا. ورَحَل فلان وارتحل وتَرحَّل بمعنى »[1].

وفي محيط المحيط: «رحل عن البلد يرحَل رحْلاً ورَحِيلاً وتِرْحَالاً شخص وسار. ورحلتُه أنا لازم مُتعدٍّ. ورحل إلى المكان انتقل...وراحَلهُ عاونه على رِحلته...وترحَّل القوم عن المكان انتقلوا...والرحْلَة النوع من الرحيل. يقال رحل فلانٌ رحلةَ من لا يعود. وعند المُولَّدين[2] قِصَّةٌ يكتبها المسافر عما جرى له وما رأى في سفرِه... والرُّحْلَة بالضم والكسر الاسم من الارتحال يُقال دَنَت رُحْلَتُنا ورِحلتنا أي ارتحالنا. ومنه قول النابغة الذبياني:

زَعَم العواذل أن رحلتنا غدًا وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ

أو الرحلة بالكسر الارتحال وبالضّم الوجه الذي يقصدُه الراحل. يُقال غدًا رِحلتنا أي ارتحالنا. ومكّة رُحلتنا أي الجهة التي نقصدها ونريد أن نرتحل إليها»[3]

---

[1]- ابن منظور، ***لسان العرب***، المجلد 11، دار صادر، ط.3، بيروت، 1994، ص ص.278-279.

[2] – المولدون: جمع مفرده مولد وهو الدخيل على العرب. من ولد عند العرب، ونشأ مع أولادهم وتأدب بآدابهم.

[3] – بطرس البستاني، ***محيط المحيط***، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، ص ص.367-368. وقد اعتمد المعلم بطرس في تأليفه على قاموس الفيروز أبادي، الذي هو أشهر قاموس للعربية مضيفا إليه ثروة من المفردات والتعابير-

«والرِّحلَة بالكسر الارْتِحَالُ للمسير، يُقال دَنَتْ رِحْلَتُنا ومنه قوله تعالى : ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيفِ﴾[1] ...ورَجُلٌ رَحُولٌ ورَحَّالٌ ورَحَّالَة: كثير الرحلة»[2].

2- تعريف الرحلة اصطلاحا:

«الرحلة هي انتقال واحد أو جماعة عائلة أو قبيلة أو أمة من مكان إلى آخر لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة، فإن كانت انتقال قبيلة أو أمة من بلاد إلى أخرى لسبب كجدب بلادهم وضيقها دونهم، أو لاضطهاد وقع عليهم أو على أثر حروب أتلفت أرزاقهم وأسباب معيشتهم ونحو ذلك من الأسباب، سميت رحلتهم مهاجرة. وهذا شأن الأمم في الأزمنة الأولى منذ خلق الإنسان إلى ما بعد الزمن التاريخي. وبذلك تفرق الناس في أقطار الأرض... وإن كانت إنتقال أمة من بلاد إلى أخرى لقصد الكسب بالحروب وشن الغارات ونحو ذلك سميت غزوة. وهذا شأن عرب الجاهلية وغيرهم من الأمم الشرقية والغربية... وإن كانت انتقال رجل أو جماعة لكشف أمور علمية أو تاريخية أو جغرافية أو لمجرد التفرج والترهة، وما يتعلق بذلك سميت رحلة أو سياحة... وإن كانت لمجرد اكتساب الرزق والإنتجاع في بلاد بقصد الرجوع إلى الوطن سميت سفرا أو تغربا، وهذا شيء مستمر في العالم منذ البداية إلى هذا الزمان وهو لا يدخل تحت الحصر وله تعلق بكل الأنواع المذكورة، ومنها تغريبة بني هلال من بلاد نجد إلى بلاد المغرب حين أجدبت بلادهم وهي مشهورة»[3].

=المعاصرة والمولدة التي أهملها جامعو المعاجم العربية.

[1] – سورة *قريش*، الآية 2.

[2] – خليفة محمد التليسي، *النفيس من كنوز القواميس* (صفوة المتن اللغوي من تاج العروس ومراجعه الكبرى) ج. 2، الدار العربية للكتاب ، طرابلس الغرب، د.ت ، ص.829.

[3] – بطرس البستاني، *دائرة المعارف*، مج.8، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، قمران ، د.ت، ص.564.

3- أنواع الرحلة:

لا تعدُو أنواع الرحلة بالرغم من تعددها[1] أن تخرج عن نطاق الأصناف التالية والتي غالبا ما يقوم أصحابها بنشرها في شكل مذكرات تتضمن مشاهداتهم وانطباعاتهم واستنتاجاتهم، حتى لا تقتصر فوائدها عليهم فقط، بل تتعداهم إلى القُرّاء الذين يتوارثونها جيلا بعد جيل.

أ- الرحلة الاستطلاعية:

وهي التي يبتغي من ورائها الرحّالة استطلاع ما خفي عليه من أحوال الأمم المختلفة، وتصدر عن حب للطواف والمغامرة لذاتهما، فيسجل ما يثير انتباهه عن طباع الناس، وأخلاقهم وعاداتهم وكذلك العجائب والنوادر التي تخالف ما تعود عليه• ومن أبرز من يمثل هذا الصنف من الرحلات من الأوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني الرحّالة الاسكتلندي وليم ليثغو[2](Wiliam Lithgow) في القرن السابع عشر.

ب- الرحلة السياسية:

وهي تلك التي يتم فيها إرسال السفراء العارفين بشؤون السياسة والحكم من قبل الملوك والحكام إلى نظرائهم في الدول الأخرى،بغرض إقامة أو تحسين العلاقات أو لعقد المعاهدات والاتفاقات وطرح المشكلات التي بإمكانها التأثير في مستوى العلاقات،وقد تكون للجوسسة على استحكامات البلد الدفاعية تمهيدا لغزوه. ومثالها رحلة أبي الحسن علي التمغروتي إلى استانبول عبر الجزائر سنة 1581 مرسلا من قبل السلطان السعدي.[3]

---

[1] – كالرحلة التجارية التي تكون دوافعها اقتصادية حيث تعقد الصفقات لبيع وتبادل السلع وقد اشتهر العرب بهذا النوع من الرحلات التي ذكرها القرآن الكريم- رحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام-والرحلة الصحية للعلاج من داء استعصى شفاؤه أو استدعى تغيير الأجواء الموبوءة أو غير الصحية إلى بيئات نقية كالجبال والأرياف، والرحلة الخيالية التي يلجأ صاحبها إلى فكره وخياله فيطوف عبر عوالم مختلفة بعد أن تعجزه قدرته عن تحقيقها على أرض الواقع وكذلك الرحلة التي تتم بعالم آخر غير عالم البشر كالرحلة إلى الدار الآخرة.

[2] – انظر التعريف به في الصفحة 23 من هذا البحث.

[3] – سجل التمغروتي تفاصيل رحلته في كتابه" *النفحة المسكية في السفارة التركية*"وقد قام بنشرها سليمان الصيد المحامي القاطن بمدينة قسنطينة.

ج- الرحلة العلمية:

وهي الرحلة التي يصبو فيها الدارس إلى المزيد من فنون العلم المختلفة بعد أن يستنفذ جميع سبل طلب العلم في بلده، فيتجه إلى مراكز أكثر إشعاعا في عصره والتي ذاع صيت أبناءها في مجالات العلوم المختلفة، فيتتلمذ على أيديهم ويستقي من منابعهم كل ما تجود به قرائحهم.

وقد أشار العلامة ابن خلدون إلى أهمية الرحلة في طلب العلم حيث يقول: «فالرحلة لابد منها في طلب العلم، واكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ (الأساتذة)»[1]. حتى اعتبرت الرحلة العلمية منقصة في حق كل من لم يقم بها من الفقهاء والعلماء.

«أضف إلى ذلك فإن السفر بحد ذاته يوسع المدارك ويفتح الآفاق العلمية، وكثير هم العلماء والمؤرخون الذين اكتسبوا علومهم من خلال الأسفار والرحلات، وهناك مجموعة كبرى من الرحالة الأجانب والعرب والمسلمين أنجزوا مؤلفاتهم التاريخية والجغرافية بعد رحلات قاموا بها في الشرق والغرب على السواء، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: روبنسون، جون كارن، وعبد الغني النابلسي... بالإضافة إلى الورثيلاني، ابن بطوطة، ابن حوقل، ابن جبير، الإدريسي، المقدسي، وسواهم الكثير »[2]، والرحلة العلمية لا تقتصر فقط على طلب العلم بل تتعداه إلى رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافية.

د- الرحلة الدينية:

و يكون الدافع إليها روحيا بقصد زيارة الأماكن الدينية المقدسة، ومن قبيل ذلك الحج إلى مكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة والمسجد الأقصى وأضرحة الصالحين بالنسبة للمسلمين، وزيارة بيت المقدس وكنيسة القيامة وكنيسة المهد بالنسبة لأهل الكتاب.

---

[1] – ابن خلدون، ***المقدمة***، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص.598.

[2] – حسان حلاق ومحمد منير سعد الدين، ***المناهج العلمية في كتابة الرسائل الجامعية "كيف تكتب بحثا أو رسالة أو أطروحة"***، دار بيروت المحروسة، بيروت، 1994، ص ص. 80،81.

وكذلك رحلات المسلمين للتعريف بالديانة الإسلامية ونشر تعاليمها السمحاء ورحلات الآباء للتبشير بالمسيح والخلاص.

وعلى كل حال يبدو أنه لا الرحلة في طلب العلم،ولا الرحلة الدينية ،كانتا ضمن اهتمامات الرحالة الأوروبيين الذين قصدوا الجزائر أثناء العهد العثماني، لعدم احتوائها على أماكن دينية تستهوي الحجيج، ولأن الفترات القليلة الزاهرة التي ازدهرت فيها العلوم ببعض حواضر الجزائر كبجاية وتلمسان، لم تكن لترقى إلى الحد الذي يجعلها وجهة لطلاب العلم والمعرفة من الضفة المقابلة، ومما زاد الطين بلة «هجرة العلماء نحو المشرق وتونس والمغرب بعد قيام الثورات الموالية أو المعادية للوجود العثماني، حين ظهور طلائعه الأولى مما أثر في الحركة العلمية التي ازدادت سوء، لأن الإبداع العلمي يحتاج إلى استقرار واستتباب الأمن، ولأن العلماء عموما ليس لهم حاجة في السياسة والحروب»[1].

ثانيا- بداية الرحلة الأوروبية نحو الجزائر وظروفها:

1- الرحلة الأوروبية في العهد الزياني:

كان للجزائر إبان حكم الدولة الزيانية علاقات تجارية واسعة مع جنوب أوروبا فرضتها عدة عوامل، أهمها طبيعة الموقع الجغرافي وخصوصيته ووجود جالية يهودية متمرسة في مجال التجارة من سكان البلاد ومن الوافدين من الأندلس[2].

«فالمملكة الزيانية فلاحية بطبيعة أرضها تجارية بطبيعة موقعها صناعية بطبيعة سكانها وإلقاح الجاليات الأندلسية والأسرى الأوروبيين»[3].

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، ***الحياة التعليمية والثقافية في الجزائر في العهد العثماني***، محاضرة ألقيت على طلبة الماجستير، بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسم التاريخ يوم2003/05/04.

[2] – ابرز الهجرات اليهودي الجماهيرية التي تدفقت على الجزائر مابين الفتح الإسلامي ودخول العثمانيين هي تلك التي تلت أحداث اشبيلية والبليار سنة 1391م ثم موجة 1492م إثر سقوط الأندلس، انظر: فوزي سعد الله، ***يهود الجزائر هؤلاء المجهولون***، دار الأمة، الجزائر، د.ت، ص.40.

[3] – مبارك بن محمد الميلي، ***تاريخ الجزائر في القديم والحديث***، ج.2، مكتبة النهضة، الجزائر، 1963، ص.377.

«ولهذه المملكة مواصلات تجارية أهمها أوروبا والسودان، فقد كانت لها مراسي كثيرة عني البكري بتعدادها ووصفها وذكر ما يقابلها من مراسي الأندلس، وكانت مدينة تيزيل جنوب تلمسان أول الصحراء ومنها تخرج القوافل إلى سجلماسة وورقلة وهما بابا السودان».[1]

أما فيما يخص التجار اليهود فقد استطاعوا أن يكسبوا مساندة كبار الصناع والتجار المحليين الذين يتعاملون معهم إلى درجة التواطؤ مما جعلهم لا يتقيدون بحدود الذمة التي نص عليها فقهاء الأمة بالإجماع، بل إن بعضا منهم تطاول إلى أعلى المناصب السياسية «وقد أثبت المؤرخ الفرنسي دي فورك (Ch.E.Dufourcq) – وذلك اعتمادا على المحفوظات الأسبانية – مكانة التجار اليهود بالممالك الثلاث، التي اقتسمت الإمبراطورية الموحدية بشمال إفريقيا، وقد كانوا يقطنون في المغرب الأوسط حسب هذه الوثائق بهنين وتلمسان وسجلماسة على وجه الخصوص»[2].

بالإضافة إلى هذه العلاقة التجارية المتميزة مع جنوب أوروبا، كانت هناك قرصنة متبادلة يمارسها كل طرف حسب قدراته «وقد تحدث عبد الباسط بن خليل عن الهجومات التي كان يشنها قراصنة النصارى على شواطئ البلاد الإسلامية فيخطفون الناس لإيقاعهم في الأسر في البلاد المسيحية، وقد بلغه خبر هجوم أربعة مراكب بساحل بجاية، نَجَمَ عنه أسرُ كثير من المسلمين، وقد أخفقت في أثناء مقامه بمملكة بني زيان، مساعي مركب آخر نزل ناحية هنين وهو ميناء بتلمسان حيث أسر أحدَ عشرَ نفرا من الفرنج فأمر صاحب تلمسان بستة منهم فعلقوا مشنوقين من رقابهم على بعض أبواب تلمسان إلى أن ماتوا وأبقى منهم خمسة يذكر أنهم من ذوي اليسار ففادوا عن أنفسهم بالمال»[3].

---

[1] – مبارك بن محمد الميلي، *المرجع السابق*، ص.378.

[2]- محمود بوعياد : « آثار محمد التنسي، مؤرخ بني زيان»، *مجلة الثقافة*، ع.47، الجزائر، 1978، ص.46.

[3] – محمود بوعياد :«رحالة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع»، *مجلة الأصالة*، ع.42، الجزائر، 1975، ص.130.

كذلك تحدث الغبريني في عنوان الدراية عن القرصنة من الجانب الآخر فقال: «كانت بجاية بلدة غزاة وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها ويترل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها.وهناك يخمس ويقع الفصل فيه و لم يزل الحال على ذلك، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش»[1].

وقد ذكرهم " ابن خلدون أواخر حديثه عن الدولة الحفصية في ما ملخصه: وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر، ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة، فيخطفون ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة، فيظفرون بها غالبا، ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم، تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم، ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد فشق ذلك على أمم الفرنجة...»[2] ولكثرتهم ومهاراتهم استعان بهم الأمير الزياني في بناء الدور والقصور«فقد كان أبو تاشفين الأول بصيرا بالتشكيل والاختراع، وله آلاف من أسرى الأوروبيين، فيهم النجارون والزلاجون والزواقون وغيرهم فاستظهر بهم على تحضير الدولة"[3].

وبالرغم من وجود هذا الكم الهائل من الأسرى الأوروبيين بالجزائر وما يقتضيه ذلك من وجود رحلات أوروبية هدفها فداء الأسرى واستطلاع أحوالهم سعيا في تخليصهم. بالإضافة إلى الرحلات التجارية التي كانت تجد مزدهرة بين موانئ الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر المتوسط[4].

---

[1] – أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، ***عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية***، تحقيق رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت، ص.76.

[2] – مبارك بن محمد الميلي، *المرجع السابق*، ص. 392.

[3] – ***المرجع نفسه***، ص.379.

[4] –جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن بجاية كانت خلال القرن الخامس عشر وطيلة السنوات الأولى من القرن السادس عشر ذات علائق تجارية مع التجار الأوروبيين فكان بها فنادق خاصة بالنصارى يشترون فيها الصوف=

إلا أنني لم أجد ولا واحدا من الرحالة الأوروبيين سواء كان تاجرا أم مفاوضا أم ممن وقعوا في الأسر، ترك لنا كتابا يتناول فيه رحلته قبل التواجد العثماني، وهذا إما لأنها لم تكتب ابتداء أو أنها وجدت و لم يكتب لها أن تنشر فطويت في ملف النسيان وإما أنها ضاعت أو أتلفت وإما أنني لم أصل إليها. وبالمقابل ظهرت العديد من الرحلات العربية التي تناولت الجزائر في كتاباتها خلال هذه الفترة[1].

2- الرحلة الأوروبية خلال العهد العثماني وتنوعها:

مع دخول الجزائر تحت الحماية العثمانية[2]، بقيادة خير الدين باشا ، عرفت البلاد

-والزيت والجلود والشمع. انظر إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي ومحمد ثابت الفندي، ***دائرة المعارف الإسلامية***، الترجمة العربية، مج. 3، إنتشارات جهان، تهران، د.ت، ص. 353.

[1] - نذكر منها كتاب ***الرحلة المغربية***، التي ألفها محمد العبدري البلنسي اثر ذهابه إلى المشرق العربي سنة689هـ/1289م، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1964.

- كتاب الرحلة المسماة ***تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*** لمحمد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطوطة المولود سنة 703ه/1304م، وقد سجل فيه صاحبه مشاهداته أثناء رحلته الطويلة عبر عدد كبير من البلدان في المغرب والمشرق الإسلاميين وممالك بلاد السودان خلال القرن الثامن الهجري(14م).

-كما دون عبد الباسط بن خليل معلومات هامة جمعها أثناء رحلته من مصر إلى المغرب والأندلس بداية من النصف الثاني من القرن التاسع الهجري(15م) بكتابه ***الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم***، الذي نشره برانشفيغ(R. Brunschvig) تحت عنوان:

Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XVe siècle, Paris, 1936.

[2] - حسب الموسوعة التركية (***Türk Ansiklopedisi***) فان التاريخ الرسمي لقبول السلطان سليم الأول(1512-1520)ربط الجزائر بالدولة العثمانية هو 15ماي 1519، انظر :

Corinne Chevallier : ***Op.Cit,*** p.37.

بينما الرسالة الموجهة من سكان الجزائر بأمر من خير الدين إلى السلطان سليم الأول كانت مؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة من عام 925هـ أي في الفترة من 26 أكتوبر إلى 3 نوفمبرعام 1519، فإذا أخذنا في الاعتبار المدة التي سيستغرقها الوفد الذي ذهب إلى استانبول لطلب التبعية للدولة العثمانية ذهابا وإيابا يكون هذا التاريخ محل نظر عند بعض المؤرخين.

والرسالة عبارة عن وثيقة محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستانبول-طوب قبي سراي- تحت رقم 6456 اكتشفها المؤرخ التركي إسماعيل حقي أوزونجارسيلي ونشرها الأستاذ عبد الجليل التميمي في المجلة-

مقومات الدولة من اختيار لعاصمة دائمة[1]، وترسيم للحدود السياسية — هي تقريبا الحدود الحالية- وسن لقوانين وتنظيمات تتحكم في مختلف أمورها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ،وتسير علاقاتها الخارجية والداخلية ،والتي كانت غير واضحة المعالم في العهد الزياني. وعلى إثر هذه الوضعية الجديدة، شهدت البلاد العديد من الرحلات الأوروبية حيث حفظ لنا التاريخ هذه الرحلات التي قام بها القناصل والسفراء والضباط والعلماء والأطباء والتجار والمغامرون وغيرهم والذين تركوا لنا مذكراتهم التي تناولت فترة إقامتهم كشاهدي عيان عايشوا الأحداث مباشرة.

ومع أننا لا يمكننا مقارنة عدد الرحالة بالعدد الهائل للأسرى الذين كونوا جالية في حدّ ذاتها صارت لها تقاليدها واهتماماتها الخاصة، وحركت أوروبا البابوية للاهتمام بشؤونها والسعي في تحرير أفرادها ما أمكنها ذلك، إلا أن كتاباتهم التي خلفوها في شكل وصف للرحلات كانت كثيرة نسبيا حيث تعادل أو تفوق ما كتبه الأسرى[2].

وقد اختلفت رحلات الأوروبيين نحو الجزائر مابين:

أ- الرحلة الفردية: والتي يعتمد فيها الرحالة على إمكاناته المالية لتغطية مصاريف الرحلة وقدرته على تحمل الصعاب والأهوال في سبيل ذلك دون الاعتماد على أحد كما هو الشأن في الرحلات الاستطلاعية التي يكون الدافع وراءها حب المغامرة

=التاريخية المغربية، ع.5، تونس، 1976، ص ص .95-101.

[1] – بعد كل من بجاية وتلمسان، جاء دور مدينة الجزائر لتلعب دورها في تاريخ الجزائر حيث اعتبار من ذلك التاريخ صارت عاصمة للدولة التي ستعرف باسمها.

[2] – من مشاهير الأسرى الذين كتبوا عن الجزائر في هذه الفترة ميغيل دي سيرفانتيس (Miguel de Cervantes) (1547- 1616) صاحب رائعة دون كيشوت دي لامانشا الذي شارك في معركة ليبانتي سنة 1571، وفقد ذراعه اليسرى وأسرته البحرية الجزائرية بعد ذلك في شهر سبتمبر 1575 فقضى خمس سنوات في الأسر وتم افتداؤه في شهر أكتوبر 1580 ثم عاد إلى الجزائر كمبعوث خاص لملك أسبانيا والبرتغال فيليب الثاني إلى الحاكم الأسباني العام بوهران سنة 1581، حيث مكث هناك شهرا وغادر وهران بعد أداء مهمته، من أهم مؤلفاته التي تناولت الجزائر بصفة ما: معاملات في الجزائر(Tratos de Argel)، في سجون الجزائر(Los Banos de Argel)، والأسباني الشجاع(El galardo Espanol)، انظر: عبد الإله ميسوم، « الجزائر في مسرحيات سيرفانتيس»، *مجلة الثقافة*، ع.64، الجزائر، 1981، ص ص.71-79.

كما فعل الرحالة الإسْكتْلَنْديّ المغامر وليم ليثغو (Wiliam Lithgow) الذي ولد في عام 1582 وهو ينتمي إلى الطبقة الاسكتلندية الغنية حيث كان مولعا منذ صغره بالرحلات الاستطلاعية متطلعا إلى معرفة كل شيء، فما كاد يبلغ العشرين من العمر حتى أخذ يغامر بحياته في رحلات قادته إلى بعض بلدان القارة الأوروبية والشرق وأفريقيا، وقد كان شاعرا ومؤرخا وجغرافيا، كما أنه من الرواد الأوائل الذين أجادوا في وصف المشاهدات، وقد نشر عام 1932 في مدينة لندن، كتابه الرئيس الذي عنوانه: الوصف الكامل لتسع عشرة سنة من المغامرات العجيبة والرحلات المهلكة، وهذا الكتاب هو الذي يتضمن الصفحات التي خصصها للجزائر[1].

ب- **الرحلة المنظمة**: والتي يكون صاحبها موفدا من قبل ملوك أو حكومات أوروبا للإطلاع على الأوضاع في البلد ومعرفة سبل غزوه، أو على الأقل الحد من خطره على مصالحهم بعقد الاتفاقات معه، أو يكون مبعوثا من الجمعيات العلمية التي تريد استكشاف الجديد في الطبيعة والجغرافية لتطوير أبحاثها، أو مكلفا من الجمعيات المسيحية التي تتكفل بجمع الأموال لفداء الأسرى، ومن هذا القبيل تتشكل أغلب الرحلات السياسية والعلمية التي سنطلع عليها لاحقا ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر رحلة الطبيب الهولندي توماس هيز(Thomas Hees) الذي كان مكلفا من حكومة الأراضي المنخفضة بمفاوضة الجزائر حول معاهدة سلم وصداقة سنة 1675.[2]

ج- **الرحلة الاضطرارية**: وهي التي تلعب فيها الظروف والصدف العامل الحاسم، حيث إن صاحبها يكون مجبرا ومرغما على أن يأخذ وجهة لم يكن قد خطط لها من قبل، بل ولم تخطر حتى على باله، كان تقطع رحلته الأصلية فيقع في الأسر، ثم يجد نفسه في رحلة إجبارية نحو المجهول كما حدث لإمانويل دارنـــدا (Emmanuel D'Aranda) الذي ولد ببروج (Bruges) سنة 1614 ولإتمام دراسته

---

[1] - انظر: ميشيل آبار:« الجزائر في القرن السابع عشر لرحالة اسكتلندي»، ترجمة حنفي بن عيسى، ***مجلة الثقافة***، ع.3، الجزائر، 1971، ص ص.44-45.

[2]- Thomas Hees: «Journal d'un voyage à Alger(1675-1676) »,traduit par G-H. Bousquet et G.W. Bousquet-Mirandolle, ***R.A,*** Tome CI, Alger, 1957, pp.85-128.

وإغناء ثقافته قرر التوجه إلى أسبانيا حتى يتعلم اللغة الأسبانية ويتعرف على موطنه الأصلي(هو من أصل أراغوني-Aragon-شمال شرق أسبانيا)، وأثناء رحلة العودة ولحظه العاثر وقع هو ورفقاؤه في الأسر بعد أن باغتتهم سفينة قرصنة جزائرية وذلك يوم 22 أوت 1640 وقد دامت فترة أسره قرابة السنتين حتى(24 مارس 1642)[1].

وكذلك الكاتب الإيطالي فيليبو بانانتي (Filippo Pananti)(1766-1837) الذي عاش بعمق الأحداث السياسية التي كانت تعصف بأوروبا، إلى حد مغادرة توسكانيا (Toscane) التي ولد بها تحت تأثير ارتباطه بالأفكار الثورية ولجأ إلى فرنسا (1799)ثم انجلترا (1802) حيث وجد راحته هناك.لأنه كان لا يرتضي النظام النابوليوني الذي يدينه بالعسكري الجائر، وفي سنة 1814 وعند عودته من انجلترا متجها نحو ايطاليا أمسكه الرايس حميدو الذائع الصيت بالبحر المتوسط وأُحضر إلى الجزائر كأسير ولكن أسره لم يدم سوى ليلة واحدة بتدخل من القنصل الإنجليزي الذي سمح له باستعادة حريته بسرعة، فمدَّد إقامته قليلا بالجزائر ليكون مجموع ملاحظاته التي نشرها بايطاليا سنة 1817، والتي نادى فيها لحرب صليبية استعمارية ضد الجزائريين الذين يعيقون التوسع الاقتصادي للأمم الأوروبية[2].

3- وجهة الرحّالة الأوروبيين ومدة إقامتهم:

وبغرض معرفة أماكن تواجد واستقرار أصحاب الرحلات الأوروبية نحو الجزائر في العهد العثماني ومدة إقامتهم، أخذت عينة من ثلاث و عشرين رحلة[3] مختلفة تغطي

---

[1]- Denise Brahimi : ***Op.Cit***, p.35.

[2]- ***Ibid***, pp.175-176.

[3]- اختيار هذه الرحلات كان لاعتبارات عديدة أهمها درجة أهمية الرحلة وقيمتها التاريخية، وتوفر المادة العلمية الخاصة بها وفي حالة عدم تمكني من الحصول عليها، اعتمدت على فصول منشورة في الكتب أو الدوريات، أو مجرد معلومات عامة عنها وهذا في حالات خاصة تعذر فيها الوصول إلى الأصل أو لأنها لم تترجم إلى لغة أستطيع التعامل معها كرحلات كل من: نيكولاس دو نيكولاي

(Nicolas de Nicolay) ,***Les quatre premiers livres des navigations orientales*** Lyon1568.

والسائح المجهول صاحب أول رحلة روسية معروفة إلى الجزائر.=

تقريبا كامل فترة التواجد العثماني بالجزائر، أي من النصف الأول من القرن السادس عشر إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، فوجدت أن أغلبهم اقتصرت إقامتهم بمدن سكناهم فهم لا يسافرون إلا قليلا، باستثناء الرحالة الذين جاؤوا في إطار البعثات العلمية كشو (Shaw) وبيسونال (Peyssonnel) وهبنشترايت (Hebenstreit) وديفونتين (Desfontaines) والكاهن بواري (Abbé Poiret)[1].

وقد جاءت مدينة الجزائر في المرتبة الأولى من حيث تعدد الرحلات والزيارات، بحكم كونها عاصمة الإيالة، ومقر دار الإمارة، ومكان إقامة القناصل وكبار التجار ولاحتوائها على العدد الأكبر من الأسرى الأوروبيين الذين يكونون على الدوام محور المفاوضات بين حكام الجزائر والمبعوثين الأوروبيين، ثم عنابة وقسنطينة والقالة وبجاية ووهران وتلمسان ثم بقية المدن الأخرى التي لم تحظ بزيارات كثيرة كسكيكدة والبليدة والمدية وملیانة ومعسكر.

أما مدة الرحلات فقد تراوحت مابين الأسبوع إلى أقل من سنة ومن سنة إلى خمس سنوات ومن ثماني سنوات إلى أربع عشرة سنة، ونلاحظ أنه باستثناء إقامة شو(Shaw) الاختيارية فطول إقامة البقية اضطرارية مردها إلى الأسر كمارمول (Marmol) وأولوفس (Olufs) كما سيتضح في الجداول التالية:

=وهارك أولوفس (Harck Olufs) وكتابه *مغامرات خاصة* ***Sonderbaren Aventuren***, Kopenhagen, 1747 ورهباندير (J.A.F.Von Rehbinder) وكتابه ***Nachrichten und Memer Kungen über den Algierschen Staat***, (3 vol.) Altona, 1798-1800

وأخيرا مراعاة التنوع في الرحلات (استطلاعية، سياسية، علمية) ولا أدعي أنني رصدت جميع الرحلات الأوروبية نحو الجزائر في العهد العثماني، فقد بقي الكثير منها الذي لم أصل إليه وذلك ليس إهمالا لها أو لعدم أهميتها وإنما لنقص المصادر وضيق الوقت المخصص للدراسة، ومن هذه الرحلات أذكر:

1- ***Relation des voyages de Monsieur De Brèves***, Paris, 1698.
2- J.B de la Faye, ***Etat des Régences de Barbarie***, La haye, 1704.
3- Joseph Morgan, ***Several voyages to Barbary***, London, 1736.
4- L Hérault , ***Voyages dans les Etats Barbaresques***, Paris, 1785.
5- « le voyage de la condamine à Alger», ***Revue d'Alger***, T. XVIII, 1954.

[1] – Abbé : كاهن بمرتبة رئيس دير.

أ- رحلات القرن السادس عشر:

الرحّـــالة	تاريخ الرحلة	الأماكن التي زارها	مدة الإقامة
كارفاجال [1]	1536	مختلف أطراف البلاد	8 سنوات أو 22 سنة كما ورد عند ن. مالكي
دو نيكولاي [2]	1551	الجزائر،بجاية،عنابة	مدة قصيرة .

ب- رحلات القرن السابع عشر:

الرحّـــالة	تاريخ الرحـــلة	الأمـــاكن التي زارهـــا	مـــدة الإقـــامة
ليثغو	1615	قسنطينة،بجاية،الجزائر. تلمسان	حوالي شهر
سالفاغو [3]	1625	الجزائر	4أشهر

[1] – مارمول كارفاجال (Marmol Carvajal): هو رحالة ومؤرخ إسباني ، ولد في غرناطة وعاش في القرن السادس عشر، اشتغل ضابطا في جيش الإمبراطور شارل كينط، شارك في حملته على تونس عام 1535، وقد وقع أسيرا في يد العرب وبقي في شمال إفريقيا قرابة ثماني سنوات، اتيحت له فرصة السياحة مع أسياده في مختلف أطراف الجزائر فاستغل وقته لتعلم العربية، بعد حصوله على حريته قام بتأليف كتابه **وصف عام لإفريقيا** ***Descripcion de Africa*** باللغة الاسبانية اعتمد فيه على ملاحظات الحسن الوزان وقد صدر في غرناطة عام 1573 وقام بترجمته إلى الفرنسية ونشره في ثلاثة أجزاء دابلونكور(N.P.d'Ablancourt) في باريس 1667، أنظر: إسماعيل العربي، «بجاية من خلال النصوص الغربية»، مجلة **الأصالة**، ع.19، الجزائر، 1974، ص .74، أما عن المدة التي حددها نور الدين مالكي بـــ22 سنة، والتي قضاها في كامل دول المغرب فانظر:

Nour-Eddine MELKI, ***Marmol Carvajal et ces sources arabes,*** actes du 2ème colloque international sur Ibn Khaldoun, Frenda du 1er au 4 juillet 1986, centre national d'études historiques, Alger, 1986, p.37.

[2] –نيكولاس دو نيكولاي (Nicolas de Nicolay.): جغرافي الملك هنري الثاني رافق السفير ق. دارامون إلى القسطنطينية سنة1551 حيث توقف الوفد بموانئ الجزائر، بجاية وعنابة فوصف هذه المدن.انظر: مولاي بالحميسي، ***الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني***، ، ش.و.ن.ت، ط.2 الجزائر، 1981، ص.13.

[3] – جون باتيست سالفاغو(Jean Baptiste Salvago): ترجمان إيطالي وظيفته مرافقة المسؤولين السامين=

دان[1]	1634	الجزائر	7أشهر
دارندا	1640	الجزائر	سنتان
السائح المجهول[2]	قبل 1674	عنابة	مدة قصيرة
هـــيز[3]	1675	الجزائر ، البليدة	5سنوات

-للبندقية أثناء تنقلهم إلى دول الشرق، كلف من قبل مجلس شيوخ البندقية بمهمة في شمال إفريقيا ليفاوض كل من ديوان إيالة الجزائر و ديوان إيالة تونس من أجل إعادة الأملاك و الأشخاص الذين أسروا على إثر الغزوة التي قامت بها ست سفن حربية جزائرية وسبع تونسية على سواحل بعض الجزر التابعة للبندقية مع نهاية جوان 1624، بالرغم من العلاقات الحسنة التي كانت تربط البندقية بالدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه جمع معلومات دقيقة عن وضعية الإيالتين واستعداداتهما الحربية وجواسيسهما في بعض المدن المسيحية وكذلك وضعية أسرى البندقية وكيفية تحريرهم، وقد باءت مهمته الأولى بالفشل فعاد إلى البندقية ووضع تقرير مفصل عن رحلته ضمنه كل ما طلب منه من معلومات. انظر:

Pierre Grandchamp, ***une mission délicate en Barbarie aux XVIIème siècle (Jean Baptiste Salvago drogman Vénitien à Alger et à Tunis en 1625),*** J.Alocio, Tunis, 1938, pp.3-4.

[1] -بيار دان (Pierre Dan): انظر التعريف به في ص. 91 من الفصل الرابع.

[2] -**السائح المجهول: لا يستبعد** المستشرق بوريس دانتسيغ أن يكون هذا الأسير هو ابن الإقطاعي فيودور دوخين، من مدينة يلتس وقع في أسر تاتار القرم ثم بيع فيما بعد في تركيا، وقد خدم في الجيش العثماني ثم عاد إلى روسيا في سنة 1674 حيث وصف رحلته الطويلة التي دامت أكثر من خمس سنوات عبر أشهر المدن العربية آنذاك وبعض مدن أوروبا وآسيا التي كانت خاضعة للحكم العثماني من بينها مدينة بون أو عنابة الحالية. انظر: عبد العزيز بوباكير، «الرحلات الروسية إلى الجزائر»، **حوليات جامعة الجزائر**، ع.10، الجزائر، 1997، ص ص. 152-153.

[3] -توماس هيز(Thomas Hees): ولد بويسب(Weesp) قريبا من أمستردام عام 1634 حصل على دكتوراه في الطب من جامعة آنجرز(Angers)، أقام بالجزائر من أكتوبر 1675 إلى ماي 1680 مكلفا من حكومة بلاده للتفاوض حول معاهدة سلم وصداقة مع الجزائر، توفي بأمستردام سنة 1693. انظر: Thomas Hees, ***op. cit***, p.85.

ج- رحلات القرن الثامن عشر:

الرحّـــالة	تـــاريخ الرحـــلة	الأمـــاكن التي زارهـــا	مـــدة الإقـــامة
خيمينيس[1]	1717	الجزائر، وهران	3سنوات
دوتاسي[2]	1718	الجزائر	5أشهر ونصف
شو[3]	1720	الجزائر، وهران، الشلف ومدن الغرب الساحلية ،قسنطينة، جرجرة، عنابة والقالة.	12سنة
أولوفس[4]	1722	قسنطينة.	14 سنة

[1]-فرانثيسكو خيمينيس(Francisco Jimenez): من رجال الدين الولعين بجمع المعلومات وتسجيلها ولد بأسبانيا في إقليم طليطلة سنة1685حاول بناء مستشفى بوهران لكن مشروعه فشل أمام رفض الباي فتحول إلى تونس حيث لم يجد الصعوبة التي وجدها في الجزائر، يومياته محفوظة بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد وتتكون من سبعة مجلدات، ثلاثة منها تخص رحلته إلى الجزائر ووهران من 1717الى 1720.أنظر: ميكال دي إيبلزا والهادي الوسلاتي، «ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم»، ***المجلة التاريخية المغربية***، ع12.، تونس، 1978، ص ص.191-192.

[2] - لوجيي دوتاسي: انظر التعريف به في ص. 102 من الفصل الرابع.

[3]- توماس شو: انظر التعريف به في ص. 108 من الفصل الرابع.

[4] - هارك أولوفس (Harck Olufs):ولد بجزيرة آمروم(Amrum)عام 1708 التي كانت ملكا للدانمرك وهي اليوم تابعة لألمانيا كانت رحلته الأولى وهو في السن الثانية عشر ، تجول في عدة بلدان بحرية، وقد أسر وعمره 14 سنة حيث عمل خزناجيا لدى باي قسنطينة، حرر سنة 1735 حيث عاد إلى آمروم وألف كتابه عن رحلته إلى الجزائر ، وعنوانه ***مغامرات خاصة*** عام 1747. عن مارتن راينهايمر (Martin Rheinheimer)، محاضرة باللغة الإنجليزية حول هارك أولوفس بجامعة الأمير عبد القادر، قاعة المحاضرات الكبرى، في 2004/05/27. وقد قام بتلخيصها وترجمتها وطباعتها أثناء إلقائها الدكتور أحميدة عميراوي.

بايسونال[1]	1724	قسنطينة ، عنابة ، الجزائر	سنة واحدة
الآباء[2]	1725	الجزائر	شهران
طـــولو[3]	1731	الجزائر	8أيام
هبنشترايت[4]	1732	الجزائر،البليدة، المدية، مليانة ، قسنطينة، عنابةوالقالة.	5أشهر

[1] – جون أندري بايسونال Jean André Peyssonnel: ولد بمرسيليا وجاء إلى سواحل شمال إفريقيا خلال سنتي 1724و 1725، في إطار مهمة علمية لدراسة طبيعة المرجان وكذلك لإتمام أبحاثه حول الطاعون الذي توفي به والده—الطبيب كذلك- أثناء الوباء الذي عم مرسيليا سنة 1720 ألف كتابا حول رحلته سماه ***قصة رحلة على سواحل بربارية Relation d'un voyage sur les cotes de Barbarie***وقد شمل العديد من الملاحظات العلمية الهامة بالإضافة إلى محاولة لفهم النظام السياسي بالجزائر. انظر :

Denise brahimi ***Op.Cit,*** p.131.

[2] –الآباء: وهم ج.دولافاي (Jaen de laFaye) ود.ماكار (Denis Mackar) وأ. دارسيزاس (Augustin d'Arcisas) وه. لوروي (Henri le Roy) الذين جاؤوا إلى الجزائر سنة 1725لفداء الأسرى الفرنسيين.أنظر:

Relation en forme de journal de voyage pour la rédemption des captifs aux royaumes de Maroc et d'Alger pendant les années 1723-1724 et1725, par les pères...Édition Bouchène, Paris, 2000.

[3] –السيد طولو (le sieur Tollot): قام بعدة رحلات برية إلى إسبانيا وألمانيا وانجلترا وهولندا وأراد أن يجرب سفر البحر فاغتنم الفرصة التي عرضت عليه لمرافقة الرحالة لاكوندامين إلى الجزائر التي وصل إليها يوم 12 جوان 1731 حيث مكث فيها أسبوعا واحدا انظر: A Berbrugger, *«un voyage de Paris à Alger en* 1731 par Le sieur Tollot », ***R.A,*** *Tome 11,* n°66, Alger, 1867, pp.417-434.

[4] –جون أرنست هبنشترايت(J. E. Hebenstreit):من سكسونيا (1702 1757) من أكبر علماء القرن 18، قدم خدمات جليلة في مجال الطب والطبيعة، ، عين أستاذا في جامعة لايبزيغ(Leipzig) بعد عودته من رحلته إلى شمال أفريقيا في إطار بعثة علميه، انظر:

Mounir Fendri, « trois voyageurs Allemands en Tunisie aux XVIIIe siècle », ***RHM,*** n°35-36, Tunis, 1984, p.72.

كوكوفتسوف[1]	1777	عنابة وضواحيها	سنة واحدة
دي فونتين[2]	1783	الجزائر ، البليدة، عنابة، القالة، قسنطينة معسكر وتلمسان.	سنتان
بواري[3]	1785	الجزائر ، قسنطينة ، عنابة، سكيكدة والقالة	سنة واحدة
رهباندير[4]	1788	وهران	؟
دوباردي[5]	1788	الجزائر	سنتان

[1] -كوكو فتسوف (M Grigorievitch. Kokovtsov):ضابط في البحرية الروسية شارك في محاربة الأسطول العثماني في البحر المتوسط، زار عنابة سنة 1777 وصدرت انطباعات هذه الرحلة في سان بترسبورغ عام 1787 بعنوان: *أخبار موثوقة عن الجزائر*، انظر: عبد العزيز بوباكير، *المرجع السابق*، ص.153.

[2] – هو عالم الطبيعيات الفرنسي لويش رينيه دي فونتين Louiche René Desfontaines تمثلت مهمته الأساسية أثناء زيارته للجزائر ما بين 1783- 1786 في جمع الأعشاب والنباتات لأغراض علمية ، فضل تونس التي تستقبل الأجنبي وتتعامل معه على الجزائر حيث العادات الفضة والغطرسة التي لا تطاق له كتاب عنوانه: ***Fragmens d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger*** *نبذة رحلة في ولايات تونس والجزائر* انظر: *Denise Brahimi* ***OP.cit, p .153***

[3] – بواري (L'Abbé Poiret) زار الجزائر سنة 1785 وقام بعدة أبحاث حول التاريخ الطبيعي لنوميديا كان يأمل أن يجد بشمال إفريقيا رجل الطبيعة الطيب والأمين ولكن تعرفه على بعض قبائل البدو بنواحي القالة وقسنطينة جعله وبأحكام مسبقة يصفهم بدوي الأحاسيس الفاسدة والطباع الخائنة سجل إنطباعاته عن الجزائر في كتابه ***رحلة في بربارية Voyage en Barbarie***.انظر: Denise Brahimi *Ibid*, p.165

[4] – رهباندير(J. A. FVon Rehbinder): هو قنصل مدينة هامبورغ وقد أقام بوهران سنة 1788، ومعلوماته صحيحة ودقيقة. وقد خصص الجزء الثالث من كتابه للإدارة التركية في البلاد ولأحوال السكان الاقتصادية والاجتماعية.

انظر: مولاي بالحميسي، *المرجع السابق*، ص.13.

[5] – دوباردي : انظر التعريف به في ص ص .111 - 112من الفصل الرابع.

د- رحلات القرن التاسع عشر (حتى 1830):

الرحّالة	تاريخ الرحلة	الأماكن التي زارها	مدة الإقامة
باناتي	1814	الجزائر	فترة قصيرة
بفايفر[1]	1825	الجزائر، المدية	5سنوات

4- تواصل الرحلات بعد العهد العثماني:

لم يتوقف تدفق الرحلات الأوروبية نحو الجزائر بعد انتهاء العهد العثماني سنة 1830 بسقوط مدينة الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي، بل على العكس من ذلك ازدادت وتيرته نتيجة دعم الاستعمار الاستيطاني لهذه الموجة من الرحلات التي تخدم أغراضه وأطماعه التوسعية.

وإذا كانت الرحلات الفرنسية هي الأكثر بحكم الواقع الجديد المفروض على الجزائر[2]، فان هذه الحقبة لم تخل من الرحلات الأوروبية المختلفة الجنسيات والأهداف كرحلات الألمان بداية من 1830، حيث شارك الطبيب يورغن فون شونبيرغ بناء على دعوة وجهت إليه في الحملة الفرنسية ضد الجزائر بصفته رئيس الأطباء، ثم تلاه العديد منهم على مدى سنوات[3]، وكذلك رحلات الروس الموفدين من قبل الحكومة للإطلاع

---

[1] – سيمون بفايفر: ولد بمنطقة راينهيسن(Rheinhessen)بألمانيا حوالي عام 1810، سافر إلى هولندا وهو لا يتجاوز الخامسة عشر، حيث حقق رغبته والتحق بمدرسة بحرية كطبيب، اسر سنة 1825 حين رست الباخرة التي كانت تقله بإحدى المدن القريبة من إزمير حيث نقل إلى الجزائر فعمل كحلاق للخزناجي ثم عينه فيما بعد طبيبه الخاص، أطلق سراحه عام 1830 حيث عاد إلى ألمانيا وأصدر كتابه ***رحلاتي وسنوات اسري الخمس في الجزائر***، سنة 1832، انظر: سيمون بفايفر، ***مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر***، تعريب أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص ص.4-6.

[2] –أحصى الأستاذ توربي دولوف (Guy Turbet Delof)أكثر من أربعة آلاف تأليف باللغة الفرنسية خاص بشمال أفريقيا في القرن 17 حسب ما صرح به في محاضرة ألقاها بكلية الآداب في تونس في بداية ماي 1968 ودون شك سيصبح هذا الإنتاج غزيرا أكثر خلال القرنين اللاحقين كما سيصير أكثر تعمقا ودقة، انظر: محمد الهادي الشريف،" المصادر الأوروبية" ، ***م.ت.م***، ع31-32، تونس، 1983، ص.520.

[3] –أبو العيد دودو، ***الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان*** 1830-1855، م. و. ك، الجزائر، 1989.

على الأوضاع في البلد والتعرف على طرق الاستعمار وأساليبه، وإما في إطار البعثات التي كانت تنظمها الجمعية الجغرافية الروسية بهدف البحث والاكتشاف العلميين، وأولها زيارة عالم الطبيعيات الروسي إدوارد إخنفالد للجزائر عام 1847 حيث صدر كتابه في العام نفسه في سان بترسبورغ بعنوان نبذات عن رحلة إلى الجزائر[1].

ثالثا- القيمة التاريخية للرحلات الأوروبية:

« إن أصحاب المذاهب والمناهج التاريخية في العصور اليونانية والرومانية والإسلامية، وفي العصور الحديثة، اتبعوا عدة وسائل وقواعد في كتابة التاريخ، ومن بين الوسائل - التي لا يزال بعضها مستخدما-على سبيل المثال لا الحصر:

1- المشاهدات العينية، وهي تعبر عن الأحداث المعاصرة للمؤرخ، أو سماع الأخبار بالتواتر.

2- جمع المواد التاريخية من المخطوطات والمصادر المتوفرة.

3- تسخير العلوم الأخرى لعلم وفن التاريخ كأن نسخر الجغرافيا في كتابة تاريخ المدن والبلدان.

4- الاعتماد على الرحلات وكتب الرحلات، ودراسة الآثار والنقوش والمستندات الموثوقة»[2].

فالرحلة وسيلة هامة لكتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بل إنها من مصادره الأولية، فإذا كان موضوع الدراسة عن الجزائر في العهد العثماني، كما هو الحال في هذا البحث، فإن القوانين العثمانية وسجلات المحاكم الشرعية الحنفية أم المالكية في الجزائر، وكتب الرحالة الذين زاروا الجزائر ووصفوها في تلك الفترة، هي مصادر أولية(مصادر معاصرة).

---

[1] -عبد العزيز بوباكير، *المرجع السابق*، ص ص.154 -165.

[2] - حسان حلاق ومحمد منير سعد الدين، *المرجع السابق*، ص.12.

«وعندما زاد على الرحلة الإقبال تنوعت الأغراض، وتعددت الموضوعات وتطور هذا الفن الأدبي كما وكيفا، وأصبح من الأهمية بمكان بحيث لا تكمل ثقافة الإنسان بدونه كما أصبح من أهم المصادر التاريخية»[1].

ولكن أين تكمن أهمية الرحلات الأوروبية؟

إنها بلا شك في قيمتها العلمية التي تأتت لها مما تحتويه من كثير من المعارف التاريخية وحتى الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها مما يدونه الرحالة وهو في قلب الأحداث المتمثلة له رأي العين واضحة جلية جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته[2]، خاصة إذا كان منصفا متجردا من الأحكام المسبقة المبنية على الأوهام والأباطيل فينقل الوقائع بصدق وأمانة علمية بعيدا عن الكذب والتزوير.

وعلى هذا الأساس" اعتبرت كتب الرحلات من المصادر الأهم بكثير من غيرها لأنها تقوم على شهادات أناس عاصروا الأحداث وشاهدوها عن قرب وعرفوا حقيقتها والطريقة التي تمت بها، وقلما يلحقها التشويه، خاصة إذا كانت قد صدرت عن إنسان عادي، لا مصلحة له في التزوير، وسجلت من طرف رحالة نزيه، ولو أنه يصعب التأكد من نزاهته»[3].

وقال عنها آخر: «من بين هذه المؤلفات(المصادر الأوروبية) أولى أهمية قصوى إلى كتابات الرحالة الأوروبيين وذلك لعدة أسباب:

1-ملاحظاتهم ناتجة عن شهادة عيان.

2-يمكن أن تصف لنا هذه المؤلفات الواقع اليومي المبتذل الذي لا يعبأ به الكاتب الأهلي ولا يدونه ونحن نعلم اليوم ما لهذه الأحداث اليومية من أهمية تاريخية فائقة.

[1] - مولاي بالحميسي، *المرجع السابق*، ص.10.

[2] - حسني محمود حسين:" دراسات في أدب الرحلة عند العرب "، *مجلة الأصالة* ،ع.32، الجزائر، 1976، ص.91.

[3] - أبو العيد دودو: «المؤرخون الالمان والجزائر»، *الأصالة*، ع.14-15، الجزائر، 1974، ص.118.

3-ليس للرحالة ارتباط برجال السياسة المحليين ولا بالمصالح المادية المحلية فيمكن لهم التجرد-في حدود معينة-إزاء هذه السياسة أو هذه المصالح»[1].

رابعا- درجة الاعتماد على المادة الخبرية لهذه الرحلات:

إلى أي مدى يمكننا الوثوق بالمادة الخبرية التي قدمتها لنا هذه الرحلات الأوروبية عن حقبة من تاريخنا مازالت لم تستكشف كما ينبغي حتى الآن؟ وهل كان عامل اللغة-عدم معرفة الأوروبيين للعربية والعثمانية-مانعا لهم من إدراك حقيقة المجتمع الذي كانوا يعيشون في وسطه؟ وبالتالي يقعون في الأخطاء والأغلاط عن قصد أو دون قصد، وهل كان دأبهم الكذب والبهتان والافتراء وبالتالي يستوجب ذلك منا رفض مروياتهم عن أسفارهم جملة وتفصيلا كما بين ذلك حسونة الدغيس الطرابلسي[2] في تقريره الذي رفعه إلى رجال الدولة العثمانية باستانبول سنة 1834، حيث جاء فيه كلام عن الرحالة الأوروبيين اتهمهم فيه بأقبح الصفات فقال: «وهكذا زنادقة الإفرنج السياحون (كذا) في الديار الإسلامية عند عودتهم إلى أراضيهم يؤلفون رحلات في أسفارهم، وحيث لم يكن لهم معارض في الرد على اختلاقهم يضعون من الكذب والبهتان ما الله به عليم، ترغيبا للمشتري على قدر ما فيه من العجائب والغرائب، ويظهرون مزاياهم على قدر من اجتمعوا به ويعرضون بحصن أهل الإسلام، وفيها يقولون أرباب المناصب ما لا يقولون ويفعلونهم ما لا يفعلون ويزدرون بهم ويفتخرون بأن الوالي فلان أو الوزير الفلاني يشركهم في أحكام واستشارهم في النوازل الملكية، وعمل برأيهم إن يقع على بعضهم

---

[1] - محمد الهادي الشريف: *المرجع السابق* ، ص.520.

[2] -ينحدر من عائلة عثمانية من ارض الروم، وقد وصل جده إلى طرابلس الغرب أواخر القرن السابع عشر بإذن من السلطان العثماني ليكون نائب الوالي بها، وتولى أفراد عائلته كلهم المناصب العليا في الولاية، أقام زمنا طويلا بأوروبا لدراسة لغاتها وقوانينها وعادات شعوبها المختلفة وساح في بلادها خاصة فرنسا، قال عنه قنصل السويد دوهمسو(Graberg De Hemso)إنه: « نادرة زمانه في المعرفة والعلم والتحصر». انظر:عبد الجليل التميمي، *بحوث ووثائق في التاريخ المغربي*، مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، ط.2، تونس، 1985، ص ص.83-84.

ذكر جميل فلعلة، إما أنهم ينسبون أن أصله كان إفرنجيا أو نصرانيا مهتدى(كذا)، ومثاله إذا تكلموا على أحد من الإسلام كما ترا (كذا)من بعضنا إذا تحدث عن أهل الجبال المتوحشين، كيف يتحدث عليهم ، وقد أشاعوا أن لا يمكن التقرب لأرباب المناصب إلا بالهدايا وقد أدرجوا الرشوة. وبالجملة والتفصيل كلما فيهم من المصائب والرذائل أوجدوه لنا معشر الإسلام، بل أخذ الرشوة عندهم حدث وتجودت صناعته فوق ما يظن به، غير أنه مموه بوسائطه، ولي على مصداق هذا حجج وبراهين لا تنكر من كل منصف شاهد تلك الديار».[1]

لقد أورد حسونة الدغيس جملة من الاتهامات شكك بها في صدقيه الرحلات الأوروبية أهمها:

1-إن تآليفهم تعتمد الكذب والبهتان واختلاق الغرائب والعجائب ترغيبا للقراء في شرائها.

2-التعريض بالبلاد الإسلامية وشعوبها وولاة أمورها حيث ينسبون إليهم الأباطيل من الأقوال والأفعال والصفات.

3- يزعمون أنهم أصحاب رأي ومشورة لا يقطع الولاة والوزراء أمرا دونهم.

4-إذا كان هناك أحد من أصحاب المناصب المسلمين ممن سبقت شهرتهم الآفاق فإنهم يرجعون ذلك إلى كونه أوروبي الأصل أو من المهتدين(Renégats).

5-اتهام سادة البلاد وكبرائها بتعاطي الرشوة فلا يستطيع أحد الوصول إليهم إلا بتقديمها.

وقد أرجع الدغيس كل الرذائل التي ألصقت بالمسلمين للأوروبيين، وإن كل من زار أوروبا يؤكد ذلك.

ولم ينفرد الدغيس وحده بهذه الاتهامات، بل وجد من الأوروبيين أنفسهم من شكك في بعض رحلاتهم فهذا بيار غرانشان (Pierre GrandChamp) بعد أن وجد

---

[1] - عبد الجليل التميمي: «الغرب كما يراه حسونة الدغيس الطرابلسي سنة 1834»، *المجلة التاريخية المغربية*، ع.5، تونس، 1976، ص.54.

بعض الأخطاء التي احتوت عليها رحلة ليثغو، والتي ربما تعود إلى خلط وقع في ترتيب أوراق مذكراته او إلى ضياع بعضها، يقول:«إن كل ما رآه هذا الرحالة لم يحدث إلا في خيال الكاتب وإن كل ما رواه عن الدول البربرية(شمال أفريقيا)، إما أن يكون قد أخذه عن كاتب آخر، أو ابتدعه من خياله، فإذا كان المثل الإنجليزي يقول: الرحالة يرون الأشياء العجيبة، فإن الرحالة المزعومين — ويقصد ليثغو- يرون عجائب أكثر»[1].

وإني أتساءل هنا لما كل هذا التحامل على هذا الرحالة المغامر الذي طاف ممالك أوروبا وآسيا وأفريقيا خلال تسعة عشر سنة؟ ألأنه اسكتلندي وليس فرنسيا؟ أم لأنه نقل عن ليون الإفريقي(الحسن الوزان) وهل تفرد بذلك؟

لقد كان كتاب وصف أفريقيا المرجع الأساس للأوروبيين على مدى قرنين ونصف لكل من له اهتمام بأفريقيا حيث اقبلوا على تدارسه والاقتباس عنه في مؤلفاتهم ومازالت قيمته العلمية إلى الآن ولو في حدود ضيقة أي للدراسات التاريخية فقط[2].

أما الكاتب الإنجليزي جوزيف مورغان (Joseph Morgan)[3] الذي أقام بالجزائر سنوات طويلة تولى فيها بعض المهام في قنصلية بلاده فقد اتهم بأنه منتحل لكتب وآراء غيره، مُصر على ذلك[4]، فصاحب كتاب الرحلات العديدة إلى بربارية و الكامل في تاريخ الجزائر والكامل في تاريخ بربارية، لم يكن إلا ناقلا لكتب غيره من لغاتها الأصلية إلى اللغة الإنجليزية والغريب أن كتابه الأخير والذي هو عبارة عن نسخة طبق الأصل لكتاب لوجيي دوتاسي تاريخ مملكة الجزائر قد أعيد ترجمته من الإنجليزية إلى الفرنسية أي انه أعيد إلى أصله-على أساس انه كتاب جديد-و لم ينتبه إلى ذلك إلا بعد حين.

---

[1]-Pierre GrandChamp , « le prétendu voyage de William Lightgow dans les états de Barbarie (1615-1616) », ***R. A,*** n°412-413, Alger, 1947, pp.213-234.

[2] – أمين الطيبي: «لمحة عن الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط في القرن 10ه/16م) من خلال رحلتي الحسن الوزان وعلي التمغروني»، ***م. ت. م***، ع.37 40، تونس، 1985، ص.484.

[3] – أشاد أبو القاسم سعد الله بالكاتب وتمولفاته، أنظر كتابه *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*، القسم الأول،ش.و.ن.ت، ط.2، الجزائر، 1981 ص ص.313-327.

[4]-Sir Godfrey Fisher , ***légende Barbaresque***, traduit par Farida Hellal, O.P.U, Alger, 1991, p. 461.

فإذا كان قد انتحل رحلات وكتابات غيره، ونسبها لنفسه، فهل تكون له مصداقية في ملاحظاته وشروحه التي رافقت تلك التآليف؟

كذلك الرحالة الفرنسي طولو الذي قدم أثناء رحلته إلى الجزائر-التي لم تدم أكثر من ثمانية أيام-ملخصا عن حياة الجزائريين في حوالي خمسين صفحة «اعتمد فيه حسب قوله على معلومات صحيحة لمقيمين فرنسيين قدماء لهم معرفة جيدة بالبلاد وأحوالها، فراح يتكلم عن الشعوب غير الخاضعة للأتراك والتي تقطن على بعد خمسة أو ستة فراسخ(حوالي 24كلم) عن مدينة الجزائر حيث تدفع لهم الإتاوات وتنجدهم أثناء الحروب، وهذه الشعوب هي: الزوار (les Zoires)، الجيبجي (les Gibegys)، التوبيجي (les Topigys) والعربه جي (les Arabagys)[1] وهكذا أصبحت قبائل زواوة وفرق الجيش العثماني[2] من الشعوب المكونة لسكان الجزائر

وقد انتقد دوتاسي هذا النوع من الرحّالة غير الواقعيين ذوي الأهواء والثروات، والذين ماكان انقطاعهم عن منازلهم حبا في السفر وفوائده،وإنما بسبب رغبة آبائهم الذين أرادوا لهم أن يشاهدوا العالم، فمعظمهم يجوبون البلدان الأجنبية عنهم ولا يرونها إلا ظاهريا، ودون أن يتخلوا عن عجرفتهم المتعاظمة وحبهم لأنفسهم وأوطانهم إلى حد النشوة وحكمهم المسبق ضد الآخرين، يبدأون ودون تمييز بإدانة واحتقار كل ما يجدونه لا يتوافق مع عاداتهم وتقاليدهم وممارساتهم، وبهذا يهربون من الحقيقة ويبقون طيلة حياتهم تحت تأثير آرائهم المبنية على الخطأ والكذب.

بينما الرحالة الحقيقيون والذين ما كان لهم أن يصيروا أكثر إدراكا واعتدالا من الذين يمكثون في أوطانهم لولا حاجتهم لرؤية الأمم المختلفة والتحدث إلى الأجانب والتعامل معهم فيكتشفون بالضرورة خصائصهم الحسنة والسيئة على السواء وغالبا ما يحتارون بشدة خاصة عندما يعرفونهم على حقيقتهم فيجدونهم مختلفين تماما عن الفكرة التي كونوها عنهم وبالتالي يجعلون من إدراكهم للأمور وقدرتهم على التمييز بين الخطأ

---

[1]- A. Berbrugger, ***Op.Cit,*** pp.430-431.

[2] – انظر :كتابتها الصحيحة باللغة العثمانية ومعناها في ملحق التعريف بالمصطلحات والأسماء العثمانية.

والصواب مرشدا لهم وهاديا، فهم يبحثون عن التعلم وتعليم الآخرين فيحسنون استعمال أوقاتهم بما يعود عليهم بالنفع والفائدة جاعلين في الحسبان أسباب ودوافع لكل ما يرونه في العالم ومن ثم ينصفون الحقيقة[1].

وكذلك انتقد كوكوفستوف الرحالة الذين لا يهتمون بالبلدان التي يزورونها ولا ينشغلون الا بشراء أشياء تافهة ليتباهوا بها أمام أقرانهم عند عودتهم إلى ديارهم فهؤلاء الرجال الأنانيون الذين ليس لهم أدنى فكرة عن أوطانهم يَسْتَخِفُّون بكل ما يفلت عن ذكائهم المحدود وما أن يلاحظوا في مكان ما ملابس مغايرة لملابسهم أو طبائع غريبة عنهم حتى يستنتجوا أن أهالي البلد لا يساوون شيئا[2].

وما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد من التشكيك في الرحلات الأوروبية، هل يمكننا عقد مقارنة بينها وبين الرحلات العربية المعاصرة لها؟[3]

ولكن هل الرحلات العربية والمحلية قادرة فعلا أن توصلنا إلى هدفنا؟

«إنها غالبا ما تكون ثرية بتراجم الأولياء فتطلعنا على حياة طائفة من المتصوفة المدرسين أو الشراح وفي الوقت نفسه ضنينة بأي خبر عن حالة البلاد فتبقينا جاهلين لحياة الرجال الذين أسهموا في الحياة السياسية خاصة وأن الحكام العثمانيين كانوا أزهد الناس بالإيعاز بتدوين مآثرهم[4] »، فيتضح من ذلك أن هذه المقارنة ربما تكون عاجزة عن تحقيق الغاية منها.

وبما أن " الرحالين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظاتهم وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم وأمانتهم وفي تنوع فهمهم

---

[1]-Laugier de Tassy , ***Histoire de Royaume d'Alger***, Loysel, paris 1992, p.11.

[2] -Marcel Emerit , « description de l'Algérie en 1787 », ***R.H.M***, n°4, Tunis, 1975, p.21.

[3] – طرح هذا الإقتراح مولاي بالحميسي في كتابه ***الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني***، ص.13.

[4] – مولاي بالحميسي: «المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني»، ***الأصالة***، ع.14-15، الجزائر، 1974،ص.73 ويمثل هذا النوع من الرحلات كل من : رحلة التمغروتي(القرن16)، ورحلة العياشي(القرن17) ورحلة الورتيلاني(القرن 18.) وهي من أشهرها.

للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها."[1] وبالتالي لم يبق لنا سوى أن نُحَكِّمَ عقولنا ومَلَكَة النقد والتحليل لدينا حتى لا تأخذ الأباطيل والأكاذيب التي يمكن أن تحويها الرحلات الأوروبية طريقها إلى أفكارنا.

وقد صادفتني أثناء مطالعاتي للرحلات على العموم أمثلة عديدة استطعت من خلالها تبين مدى صدقية أو تجني وكذب أصحابها أذكر منها مثالين توقفت عندهما كثيرا.

الأول للحسن الوزان الرحالة المغربي في معرض حديثه عن بعض الأمراض التي تنتشر في بلاد البربر حيث خلص إلى أن :« الجلوس على الأرض في الشتاء يسبب أحيانا لذوي المزاج الدموي سعالا قويا وأليما، وكثيرا ما يتلهى في المساجد يوم الجمعة في الوقت الذي يجتمع عادة آلاف الأشخاص، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين، سعل آخر(ثم آخر) وهكذا حتى يسعل الجميع في نفس الوقت تقريبا إلى نهاية الخطبة فيفترقون دون أن يستمع أحد إليها»[2].

وكنت قد عايشت هذه الظاهرة مع بداية ارتيادي للمساجد نهاية سبعينيات القرن الماضي حيث حيرتني وأضحكتني في الوقت نفسه، ولطالما تناقشت مع إخوتي حولها، خاصة وأننا لاحظناها تتكرر في جميع المساجد التي كنا نرتادها بمدينتي قسنطينة وجيجل، فلم نستطع الوصول إلى فهم حقيقتها وأسبابها.

وقد دامت هذه الظاهرة بعد ذلك أكثر من عشر سنوات ثم زالت نهائيا، ويستطيع كل من عايش تلك الفترة وما قبلها أن يؤكد ذلك ، وبما أن أغلب المصلّين في ذلك الوقت كانوا من الشيوخ والكهول والقليل فقط من الأطفال والشباب فقد عَزَوْنُها إما إلى مرض الشيوخ المسنين أو أنهم يفعلون ذلك بدافع التقليد فقط حتى وجدتها مذكورة في رحلة الوزان حيث تناولها وصفا وتعليلا. فتعجبت أن تدوم هذه الظاهرة كل هذه المدة من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن العشرين،وتعجبت أكثر من دقة ملاحظة الرحالة

---

[1] - حسني محمود حسين، *المرجع السابق*، ص.90.

[2] - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، *وصف افريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج.1، دار الغرب الإسلامي، ط.2، بيروت، 1983، ص ص.83-84.

العربي وسعة إطلاعه وصواب تفكيره. لأن ربما التطور الحاصل في المنازل وغيرها من المرافق العامة حيث من النادر أن يجلس الناس على الأرض، وحتى المساجد صارت مجهزة بأحدث الأفرشة الثقيلة إضافة إلى وسائل التدفئة الحديثة، وبالتالي لم يُصَبْ الجيل الجديد بهذا النوع من السعال ومع تناقص أعداد الشيوخ والكهول بالوفاة والذين كانوا يعانون منه، عرف السبب الذي أدى إلى زوالها نهائيا.

والمثال الثاني للأمريكي كاثكارت[1] أثناء وصفه لمدينة الجزائر حيث تكلم عن وضع كان ولا يزال قائما في الجزائر، وأعطى في بضع جمل أسباب التصحيح والنجاح والمعوقات التي تقف في طريق تحقيق ذلك، فيقول: "لو أتيح لهذا البلد نظام للحكم كفء يعمل لرخاء شعبه ويشجع الزراعة والفنون والصناعة لأصبح دون شك في ظرف بضع سنوات قطعة من جنة الخلد، ولو وجدت على رأسه حكومة رشيدة لتحول من معقل للقراصنة وقطاع الطرق كما هي الحال الآن إلى أمة تجارية كبيرة ولأصبحت من بين البلدان الصناعية المتقدمة، ولكن الدول الأوروبية الغيورة على مصالحها والتي تتخوف من منافسة الجزائر لن تسمح لهذا الشعب ولبلده بأن يصبح بلدا صناعيا وتجاريا إلا إذا أخضعته لسيطرتها كلية."[2]

وحتى هذه لم تسمح بها فرنسا بعد أن احتلت الجزائر واستفادت من خيراتها طيلة مئة واثنتين وثلاثين سنة ثم تركتها مرغمة في أسوأ حال.

---

[1] – كان هذا الأمريكي ضمن ركاب السفينة ماريا بوسطن ينما استولى الجزائريون عليها سنة 1785 وهي أول سفينة أمريكية تقع في يد القراصنة الجزائريين ، انظر: جيمس ليندر كاثكارت، ***مذكرات أسير الداي كاثكارت فنصل أمريكا في المغرب*** ، ترجمة إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص.9.

[2] – ***المصدر نفسه***، ص.85.

الفصل الثاني

دوافع رحلات الأوروبيين نحو الجزائر

أولا- الدوافع السياسية

ثانيا- الدوافع العلمية.

ثالثا-الدوافع الإنسانية و الدينية.

رابعا-الدوافع السياحية والثقافية.

خامسا -الدوافع الاقتصادية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

دوافع رحلات الأوروبيين نحو الجزائر

تعددت الدوافع التي جعلت الرحالة الأوروبيين يَشدُّون الرِحَال نحو الجزائر لزيارتها أثناء العهد العثماني، واختلفت من رحالة إلى آخر، إلا أنها لم تخرج في الغالب عن أن تكون إحدى الدوافع الخمس التالية وهي الدوافع السياسية والإنسانية والعلمية والاقتصادية والسياحية.

وفي حين كانت اغلب الرحلات منظمة ومخطط لها في إطار الوفود والسفارات والبعثات العلمية حيث كان الرحالة يضع لنفسه أهدافا محددة لتحقيقها، فإن بعض الرحلات كانت فردية أو اضطرارية حيث وجد أصحابها أنفسهم في بلادنا دون مشيئتهم بعد أن شاء لهم القدر ذلك.

وسأتعرض لهذه الدوافع حسب أهميتها وتكررها مع كل رحلة وفق الترتيب التالي:

أولا- الدوافع السياسية:

هدفها توثيق العلاقات السياسية عَبْرَ تبادل الآراء حول شؤون السلم والحرب ومناقشة المعاهدات والاتفاقيات وقد تكون تمهيدا لغزو أو احتلال في إطار الجوسسة التي كانت تمثل أحد جوانب الصراع الجزائري الأوروبي في الجزائر العثمانية.

1- توثيق العلاقات السياسية:

كانت علاقات الجزائر مع أوروبا علاقات متقلبة اتسمت بطابع الحروب البحرية منذ القرن السادس عشر حتى احتلال الجزائر في 1830، مما كان يستدعي دخول أحد طرفي النزاع في مفاوضات لتهدئة الوضع بين الحين والآخر، أو للمطالبة باحترام بنود الاتفاقيات، ففي يوم 14 فيفري 1625، وصل إلى مدينة الجزائر ج.ب سالفاغو (J-B Salvago) قادما من ليفورن مكلفا من مجلس شيوخ جمهورية البندقية التي كانت تربطها علاقات ودية مع الباب العالي، بالحصول على أمر من ديوان الإيالة بإطلاق سراح الأشخاص الذين خطفوا على أثر الغزوة التي تعرضت لها بعض السواحل والجزر التابعة للبندقية في عملية مشتركة لست سفن شراعية حربية جزائرية وسبع تونسية، وإرجاع الأصول التي نهبت استنادا إلى كون الجزائر تحت الحماية العثمانية وبالتالي عليها احترام أصدقاء الدولة العلية. وبعد أن مكث أربعة أشهر في الجزائر غادر نحو تونس يوم 14 جوان ثم عاد إلى البندقية في فيفري 1626، وقد باء القسم الأول من مهمته والمتمثل في استرجاع الممتلكات والأشخاص بالفشل الذريع[1]وفي سنة 1674، وبعد عشر سنوات من الحرب مع هولندا، بادرت الجزائر إلى استئناف الاتصالات، حيث أرسل حجي محمد[2]

---

[1] – Pierre grand champ, ***une mission délicate en barbarie,au XVII^{ème}siècle***, *op.cit,* pp. 3,4.

[2] – يعتبر حجي محمد أول داي انتخب في الجزائر وقد كان رجلا مسنا، قدم إلى الجزائر بشكل اعتيادي، وكان لا يزال شابا أثناء ذلك، ثم تطوع في الانكشارية، وتدرج إلى أن وصل إلى رتبة داي، وبقي فيها مدة إحدى عشرة سنة، لكن صهره بابا حسن كان يدير معظم أعماله، تعرضت الجزائر في عهده لوباء استمر سنة كاملة من 1672 حتى 14 أوت 1674، وكذلك انفجار مستودع للبارود في باب الواد في شهر فيفري من سنة 1681، فاهدم من جرائه أربعمائة منزل، وقتل العديد من الأهالي، واتسمت العلاقات مع فرنسا بالفتور على غير العادة إلى درجة إعلان الديوان الحرب على فرنسا في 18 من أكتوبر سنة 1681. وحين سمع الداي أن ملك فرنسا أمر قواته بالتوجه إلى الجزائر لتدميرها وإحراقها أدرك أن الموقف يحتاج الى مواجهة قوية ومادام الحكم الفعلي بيد صهره فعليه أن يترك له مواجهة الفرنسيين فهرب سرا على متن سفينة توجه بها الى طرابلس الغرب واستقر فيها انظر: عزيز سامح إلتر، ***الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية***، ترجمة محمود علي عامر ، دار النهضة العربية ، بيروت، 1989، ص ص . 415، 420.

رسالة يعبر فيها عن رغبته في إقامة علاقات حسنة بين الدولتين، فتقرر إرسال توماس هيز (Thomas Hees) إلى الجزائر مفوضا عن الجمهورية لإبرام معاهدة سلم حيث وصل إليها يوم 13 أكتوبر 1675، و استقبله الداي حجي محمد الذي أبلغه أن صهره بابا حسن المكلف بأمور السياسة الخارجية يوجد بتلمسان لإخماد تمرد الأهالي. وبعد عودته رفض بابا حسن عقد أي اتفاقية مع هولندا ما دام يعيش بسلام مع فرنسا وإنجلترا حتى لا يحرم قراصنته من غنائم الهولنديين، أمام دهشة هيز الذي تساءل في قرارة نفسه عن جدوى الرسالة التي عبرت فيها الجزائر عن إرادتها في إحلال السلام ما دام صهر الداي يرفض ذلك.

وفي انتظار أن يغير بابا حسن رأيه، حاول هيز بجميع الطرق التوصل إلى عقد معاهدة مع الجزائريين مستغلا بعض الأحداث التي يمكن أن تعمل لصالحه، كالقطيعة التي حدثت بين الجزائر ولندن في أكتوبر من سنة 1677، إلا أنه انتظر حتى جانفي 1679 حين أعلمه بابا حسن بأنه يريد وضع حد للحرب ضد هولندا شرط أن تمنحه عشرة مدافع كبيرة، وما يلزمها من البارود والقذائف، وقد كان توماس هيز يأمل أن يقبل بابا حسن منه بعض الرشاوى ليتنازل عن هذا الشرط، لكنه أخبره بأنه يفضل السمعة الحسنة على المال. وبعد أن وافق بابا حسن على الحصول على ثمانية مدافع فقط من أصل العشرة، تم الصلح مع الهولنديين في 29 أفريل 1679.

وبالرغم من اتفاقية الصلح، إلا أن السفن الهولندية كانت لا تُرى إلا نادرا بميناء الجزائر، مما جعل بابا حسن يعبر عن خيبة أمله في إحدى رسائله لهولندا، لأنه حتى السفينتين التجاريتين الوحيدتين اللتين رستا بميناء الجزائر كانتا مستأجرتين ليهود، وطالبوا بأسعار جدٌ مرتفعة لبضاعتهم، مما سيعرض لاهاي (La haye) للحرب مجددا وبعد رجوعه إلى هولندا، عاد هيز مرة أخرى إلى الجزائر في زيارتين مختلفتين، وكانت زيارته الأخيرة لتعزيز الصداقة بين البلدين حيث أحضر معه مائتين و أربعين برميلا من البارود وهدايا أخرى قيمة[1].

[1]- Gérard Van Krieken, ***corsaires et marchands(les relations entre Alger et les***=

أما في 12 جوان سنة 1731 فقد وصل إلى الجزائر قادما من باريس السيد طولو (Le sieur Tollot) والرحالة الفرنسي الآخر لاكوندامين (La condamine) مرافقان لمبعوث ملك فرنسا المكلف بعرض شكاوى أهالي السواحل الفرنسية التي تعرضت لأعمال قرصنة من قبل سفن جزائرية، ولدى مثولهم أمام الداي عبدي باشا[1]، أكرم وفادتهم واستمع إلى شكواهم باهتمام بالغ ولكنه أجل النظر فيها إلى الغد، وأثناء الجلسة الثانية التي كان سيرد فيها على المطالب الفرنسية حسب وعده، نفى الداي أن تكون غارات القراصنة على سواحل فرنسا قد تمت بموافقته، وأما البحارة الخمسة عشر الذين أُسروا فقد سلمهم إلى قنصلية فرنسا وأنه عاقب رئيس السفينة التي قامت بأسرهم، وفيما يخص الجنويين السبعة الذين أسروا كذلك في السواحل الفرنسية، فهو يستغرب مطالبة فرنسا بإطلاق سراحهم رغم كونهم أجانب عنها، متجاهلا المعاهدات التي تمنع صراحة من أخذ الغنائم على سواحل فرنسا، وقد غادرت البعثة الفرنسية يوم 20 جوان من السنة نفسها، وهي غير راضية تماما عن أدائها بعد أن بقيت العديد من المسائل عالقة دون حل[2].

ولم تخرج مهمة فونتير دوبارادي (V. de Paradis) عن هذا الإطار، عندما أرسل سنة 1788 لمساعدة القنصل الفرنسي ميشال دوكرسي(Michel de Kercy)، أثناء مفاوضاته مع الداي محمد عثمان باشا على إثر إغراق مركب جزائري بواسطة سفينة تابعة لنابولي قريبا من جزر إيير (Iles d'Hyères).

=***pays bas 1604-1830)***, édition Bouchene, paris, 2002, , pp .68-79.

[1]- انتحب الداي عبدي سنة 1724 وهو ذو شخصية عسكرية قوية، وطباع جيدة وروح رقيقة، ولكنه مع الأسف كان مدمنا على الأفيون، ونتيجة لهذا الإدمان كان يصاب بنوبات جنون مدهشة، انظر : سامح عزيز إلتر، ***المرجع السابق***، ص. 473.

[2] - A, Berbrugger: ***Op.Cit***, pp.421,423,430

وقد وصف السيد طولو الداي عبدي بأنه رجل في السبعين من عمره، أعور العين اليمنى (لهذا يسمى كور عبدي) نبيها، يحكم منذ سبع سنوات وقد نجا من ثلاث محاولات اغتيال.

وقد تسبب هذا الحادث في وقوع خلاف شديد بين الإيالة وفرنسا، فتشنجت العلاقات وهدد ديوان الجزائر بالنقض الفوري لمعاهدة السلام مع فرنسا، إذا لم تعوض المركب الغارق لأنه حسب أحد بنود المعاهدة فإن فرنسا ملزمة بحماية سفن القرصنة الجزائرية، التي تتعرض لاعتداء إذا كانت السفن المعتدية على مرمى مدافعها المتمركزة على سواحلها.

وقد فضلت فرنسا الرضوخ لمطالب الجزائريين على الدخول في مفاوضات قد تؤدي إلى إدراج بنود جديدة في المعاهدة تكون لغير صالحها[1].

2- الجوسسة:

لقد كانت أطماع الدول الأوروبية كإسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهولندا كبيرة لاحتلال الجزائر، خاصة بعد أن تضررت مصالحهم التجارية التي ضربتها البحرية الجزائرية في الصميم، ولهذا كانت الأوضاع السياسية الداخلية غير خفية "على الأوروبيين لكثرة ما كان لهم من مخبرين رسميين كالقناصل والتجار وغير رسميين كالجواسيس والسواح"[2]، فالقناصل المعتمدون في الجزائر يمثلون بلدانهم لدى الجزائر ويقدمون التقارير المفصلة حول أحوال الإيالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد استعملت بعض الدول الأوروبية كإسبانيا مثلا، جواسيسا من بين الأهالي أنفسهم للحصول على المعلومات، وأما النوع الآخر من الجوسسة فيتم عن طريق الرحالين والأسرى الموجودين في سجون الجزائر، أو العاملين في قصور الدايات، بالإضافة إلى المقيمين في الجزائر والمدن الساحلية تحت غطاء التجارة أو دراسة الآثار والنباتات والحيوانات أو في إطار البحوث الطبية[3]، "وقد كان من أهم نتائج وجود الجالية الأوروبية على الأرض العربية، هي النتيجة السياسية التي تلخص بأنها كانت مقدمة استطلاعية للاحتلال السياسي الذي تلا بعد قرون، وقد كان هذا

---

[1] - Venture de Paradis, ***Alger au XVIII ème siècle 1788-1790 (mémoires notes et observations d'un diplomate-espion)***, G.A.L, Alger, 2006, pp.11,12.

[2] - عبد الله العروي، ***مجمل تاريخ المغرب***، ج.3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص. 79.

[3] - أحمد السليماني، ***النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني***، دحلب، الجزائر، 1994، ص. 71.

انتقاما للمسيحية الأوروبية من الإسلام المنتصر دوما كما قال المؤرخ مانتران"[1].

وقد استغلت أوروبا جانب الجوسسة إلى أقصى حد، واضعة نصب أعيُنها احتلال مدينة الجزائر التي استعصت عليها على مدى ثلاثة قرون. فهاهو ميغيل دي سيرفانتيس الروائي الشهير ومؤلف أول رواية في تاريخ الأدب، ما إن يتم افتداؤه بواسطة الترينيتاريين[2] (Trinitaires) في أكتوبر 1580، حتى يعود إلى الجزائر بعد أقل من ثمانية أشهر من تحريره مبعوثا من ملك إسبانيا والبرتغال فيليب الثاني إلى الحاكم العام بوهران دون مارتين دي كوردوبا في مهمة خاصة، حيث وصل إلى مدينة وهران في أواخر شهر ماي سنة 1581 وغادرها بعد أداء مهمته في أواخر شهر جوان من السنة نفسها. ويبدو أن الاختيار وقع على سيرفانتيس- وهو الجندي السابق في الجيش الإسباني الذي حارب ضد النفوذ العثماني بأوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط- بسبب فترة الخمس سنوات التي قضاها أسيرا بالجزائر والتي مكنته دون شك من معرفة أحوال البلاد والعباد بهذه المدينة، مما سيساعد إسبانيا في مخططاتها لضرب أو احتلال الجزائر، أو على الأقل المحافظة على مستعمرتها في قلب الحكم العثماني بشمال إفريقيا، مدينة وهران[3].

---

[1] - ليلى الصباغ، "وضع الجاليات الأوروبية في العالم العربي الإسلامي إبان الحكم العثماني"، ***الأصالة***، ع.25، الجزائر، 1975، ص. 135.

2 - هذه الطائفة أسسها سان جان دي ماتا (St Jean de Matha) وسرعان ما وجدت التشجيع والمساندة من طرف البابوات والملوك المسيحيين، فانتشرت في كامل أوروبا وآسيا وذلك لأن هدفها الأساسي كان المداواة وافتداء الأسرى، ولهذا بلغت قمة إشعاعها في القرن السادس عشر الذي ازدهرت فيه القرصنة وحميت فيه الحروب بين المسلمين والمسيحيين، أما زوالها فهو راجع إلى إلغاء العبودية في العالم حسب اتفاقيات فيينا سنة 1815. وطوال الستة قرون من عمر هذه الطائفة تمكن الترينيتاريون من افتداء أكثر من خمسمائة ألف أسير، انظر: الهادي الوسلاتي، "المستشفى الترينيتاري الإسباني بتونس"، *م.ت.م*، عدد 22/21، تونس، 1981، ص. 167.

[3] - احتلت إسبانيا مدينة وهران سنة 1509 بقيادة بيدرو نافارو (Pedro Navarro)، وكانت قد احتلت قبلها مدينة المرسى الكبير سنة 1505 والتي لا تبعد عن وهران إلا مسافة ثمانية كيلومترات فقط، ولم تتحرر وهران نهائيا إلا سنة 1792، انظر: أحمد توفيق المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)***، ش و ن ت، ط.2، الجزائر، 1976.

والغريب في الأمر أنه حتى الرحّالة الاسكتلندي المغامر وليم ليثغو[1] الذي زار الجزائر سنة 1615 راح يدلي بدلوه في ميدان هو بعيد عنه كل البعد، مما يؤكد أن التعبئة كانت عامة ضد الجزائر، فحين وصف مدينة الجزائر قال عنها : "تقع مدينة الجزائر على سفح ربوة شديدة الانحدار، وتبدو مثلثة الشكل وهي محصنة جدا من ناحية البحر بالأسوار والتلال والمعاقل المنيعة والمدفعية، إلا أن المعاقل التي تحدق بها على شكل هلال من ناحية البرّ ليست متينة ولا تجدي نفعا إذا ما تعرضت المدينة للهجوم المفاجئ"[2]. وبعد أن بين نقطة الضعف الدفاعية للمدينة، أي المكان المناسب لدخول القوات المعادية، راح مجددا يختار الوقت والزمان المناسبين لذلك فيقول : "وكثيرا ما يخرج أغلب سكان المدينة إلى المرتفعات المجاورة هروبا من الحر الذي لا يطاق في السهول الساحلية، وتلك هي العادة في جميع المدن التي يقيم بها الأتراك في شهور جويلية، أوت وسبتمبر، وبما أن هذه المدن خالية في تلك الشهور من نصف أهاليها المدافعين عنها، فتلك أحسن فترة وأنسب وقت للمسيحيين إذا أرادوا الدخول إليها أو اقتحامها"[3].

ولقد كانت مهمة سالفاغو في شقها الآخر، تتمثل في أن يستعلم بدقة عن وضع الإيالة وتجهيزات سفنها الحربية والمتواطئين معها في بعض المدن المسيحية[4]، وعند عودته إلى البندقية (Venise) ، كتب تقريره المحدد بالتعليمات التي أعطيت له عندما تم تكليفه بالمهمة[5].

أما الأب الترينيتاري فرنثيسكو خيمينيس الذي جاء إلى الجزائر تحت غطاء تحرير الأسرى وبناء مستشفى لهم بوهران، فقد ألّف ثلاثة مجلدات تخصّ رحلته إلى وهران

---

[1] – وليم ليثغو (Wiliam Lithgow)، وفي المجلة الإفريقية ويليام لايتغو (William Lightgow).

[2] – ميشيل آبار، *المرجع السابق*، ص. 48.

[3] – *المرجع نفسه*، ص.48.

[4] – كان رد فعل الجزائر على الجوسسة الأوروبية عن طريق اليقظة ومطاردة الجواسيس والحصول على أخبار الأعداء بواسطة رجال الاستخبارات الجزائرية في الدول الغربية نفسها كإسبانيا وفرنسا، انظر: أحمد السليماني، *المرجع السابق*، ص. 72.

[5] - Pierre Grand champ, ***une mission délicate…***, *Op. cit.* ,pp. 3,4.

والجزائر من 1717 إلى 1720 وكانت وهران قد استرجعت من أيدي الإسبان سنة 1708 وبقيت مدة 24 سنة تحت حكم الباي مصطفى بوشلاغم[1]، قبل أن تسقط مرة أخرى في أيدي الإسبان سنة 1732. ونلاحظ أن توقيت زيارته كان في فترة حرجة ما لبثت وهران أن احتُلّت فيها مرة أخرى بعد مغادرته للجزائر باثنتي عشرة سنة، مما يرجح أن تكون الجوسسة من ضمن مهامه التي جاء من أجلها إلى الجزائر، وقد كان الباي بوشلاغم حذرا تجاه الإسبان القادمين إلى وهران خشية أن يكونوا من الجواسيس، فلم يمض على وجوده هو ورفاقه أكثر من أربعة أيام في وهران، حتى أرسل لهم أمرا بمغادرة البلاد. وقد اعترف خيمينيس نفسه أن الباي قد دخلته الريبة في أمرنا وظن أننا قد نكون من الجواسيس الذين جاءوا لمعاينة المكان. وأمام ما يتهدّدنا من خطر طلبنا من القنصل الإنجليزي التدخل لنا عنده مرة ثانية كي يسمح لنا بالبقاء مدة أخرى"[2]، وقد منحهم الباي من الوقت ما طلبوا إلى أجل معلوم.

وفي يومياته يبتهج خيمينيس باحتلال وهران ويتمنى احتلال تونس فيقول: "إن الإرادة الإلهية التي تركت هذه القاعدة للكفار أعواما قليلة، لأن ملكنا الكاثوليكي استردها سنة 1732، هذه العناية الإلهية لم تسمح ببناء المستشفى في وهران كي تسهل بناءه في تونس حيث الحاجة إليه لا تقل أهمية عما في وهران. فهذه بعد فتحها لم يعد الأسرى في حاجة إلى مستشفى لأنه لم يعد هنالك أسرى، عكس ما هو في تونس حيث هم بكثرة، وهذا لا يعني أن الله يريد ذلك، ولكن الله يريد أن يحفز الأمراء المسيحيين على فتح هذه المدينة حتى لا يعود الترينيتاريون في حاجة للبقاء فيها"[3].

---

[1] – كان باي الغرب مصطفى بوشلاغم مقداما جريئا ممعنا في مناوشة الإسبان، عاقدا العزم على استخلاص وهران منهم فوجد من محمد بكطاش (داي الجزائر 1707- 1710) أذنا صاغية ووجد من الخزناجي ووزيره وصهره اوزون حسن نعم المعين على تنفيذ ما اعتزم القيام به. انظر: أحمد توفيق المدني، *المرجع السابق*، ص.455.

[2] – ميكال دي إيبلزا والهادي الوسلاتي، *المرجع السابق*، ص. 199.

[3] – *المرجع نفسه*، ص .196.

ولم تُمر إقامة العالم الألماني هبنشترايت مع زملائه الباحثين بقسنطينة سنة 1732 دون حوادث، لتزامنها مع حالة الحرب الدائرة رحاها بين إسبانيا والجزائر، خاصة بعد وصول أنباء عن سقوط وهران في يد الإسبان. ففي يوم 3 جويلية ، وبينما كان الرحالة الألمان منهمكين في أخذ مخططات للمدينة والجسر وقوس النصر وقناة الماء، هُوجموا من قبل حشد غفير[1] كما دوّن ذلك هبنشترايت نفسه حيث يقول "لقد تعرضنا سابقا للشتم مرات عديدة من قبل السكان الذين اعتبرونا جواسيساً إسباناً، بناء على عددنا واهتمامنا الظاهر بالمدينة، إلا أننا لم نكن أبدا في حالة مقلقة وأمام خطر محدق كما كنا في ذلك اليوم. حيث تساقطت علينا كمية من الحجارة الثقيلة والموجهة في الغالب بدقة".

وقد وجد هبنشترايت ومن معه أنفسهم في مواجهة عدوان السكان- الموصوف بالتعصب- والذين لم يتصوّروا أن يأتي أشخاص من بعيد لغاية علمية أو سياحية دون أن يكونوا من جواسيس العدو. ومثل هذا الاعتداء وقع خاصة في بجاية وقسنطينة، ولكن ليس في مدينة الجزائر حيث حظي هبنشترايت بالاحترام والتقدير من السكان الذين اعتبروه طبيبا يجب له التوقير اللائق بعلمه، حين شاهدوه يجمع الأعشاب والنباتات[2].

ومن ميناء ليفورن (Livourne)، أبحر الرحالة الروسي كوكوفتسوف نحو السواحل البربرية، حيث زار مدينة عنابة سنة 1777[3]، وكان هدفه الرئيس: الاستعلام عن قوات البحرية الجزائرية التي ستنضم إلى الأسطول العثماني، في حالة نشوب نزاع بين روسيا والدولة العثمانية، فالحكومة الروسية كانت جد متلهفة للحصول على المعلومات الخاصة بدول المتوسط، بعد أن قررت كاثرين الثانية[4] (Catherine II) أنّ الوقت قد

---

[1] - ارتياب الأهالي يدل على وعيهم بالخطر الداهم الذي كان يترصدهم دوما من الضفة الأخرى للمتوسط.

[2] - Mounir Fendri, ***Op.cit***, pp. 82,83, 93,94.

[3] - تعتبر هذه الرحلة ثاني رحلة روسية معروفة إلى الجزائر بعد رحلة السائح المجهول، انظر: عبد العزيز بوباكير، ***المرجع السابق***، ص ص 153-154.

[4] - كاثرين II(1729-1796): إمبراطورة روسيا، دامت مدة حكمها 34 سنة وتوسعت روسيا في عهدها على حساب الدولة العثمانية.انظر:

Philipe Merlet dir., ***le petit Larousse illustré,*** Larousse , 100ème édition, Paris,=

حان للقضاء على الإمبراطورية العثمانية، ووضع تاج بيزنطة فوق رأس ابنها قسطنطين (Constantin)، وعليه يجب البحث عن قواعد بحرية في البحر المتوسط، ترصد لإزعاج الإمبراطورية العثمانية عسكريا، ويرجح أن تكون مهمة كوكوفتسوف مخصصة لتحضير مفاوضات سلام بين روسيا والدول البربرية، لتحييدها في حالة حرب تركية-روسية- فإن فشل في ذلك، فعليه جمع المعلومات اللازمة حول القراصنة، والسبل الكفيلة لوضع حد لعملياتهم، وعند الضرورة تنظيم عمليات لمقاومة القرصنة[1].

أما فونتير دوبارادي الذي أوفدته فرنسا إلى الجزائر من أجل تسوية الخلافات التي شجرت بين الطرفين، فيبدو أن مهمته كانت أشمل من ذلك خاصة وأنه مكث سنتين كاملتين هناك، و لم يقع الاختيار عليه اعتباطا وهو الذي يحسن اللغات العثمانية والعربية واللاتينية إلى جانب اليونانية ، وكان قد انتسب في مرحلة مبكرة — كان عمره أربع عشرة سنة- إلى مدرسة اللغات الشرقية، وهي مؤسسة ملكية متخصصة في تكوين دبلوماسيّي المستقبل الجواسيس.[2]

وقد أقام الضابط بوتان في سنة 1808م في الجزائر على أساس أنه من هواة الآثار واستقبل من قبل القنصل دوفال في مدينة الجزائر وفحص المدينة، من رأس تامنفوست إلى سيدي فرج وحصل على معلومات هامة خارج الحدود المسموح للأجانب بزيارتها، واستطاع أن يخدع يقظة شرطة كانت تعتبر أحسن وأدهى شرطة في ذلك العهد، وقدّم لبلاده عملا كان من المصادر الرئيسية التي عوّل عليها منظمو حملة عام 1830[3].

وأخيرا لماذا لا يكون باناني، قد مدّد إقامته بالجزائر بعد أن أُطلق سراحه سنة1814 بغرض التجسس على الجزائر؟ انتقاما من الدولة التي أسرته، وخدمة لأطماع الدول الاستعمارية الأوروبية، خاصة وأنه نادى صراحة باحتلال شمال إفريقيا بأكمله،

=2004, p.1258.

[1] - Marcel Emerit, ***Op.cit***, pp. 209-210.

[2] – Venture de Paradis, ***Op.cit***, p.7.

[3] – أحمد السليماني، ***المرجع السابق***، ص ص .71-72.

وأظهر أهمية ذلك لأوروبا، وقد ساق الحجج الكثيرة التي حاول تبرير موقفه بها، حتى لا يتّهم أنه رجل دون مبادئ، فيقول: "إذا كان دافعا الشرف والعدالة غير مسموعين -بعد أن أسهب في توضيحهما- فإن دافعي المصلحة والمنفعة يجب أن يُسمعا وأن يكونا الفيصل في حرب الانتقام. فأين تستطيع أوروبا أن تجد كسبا أكثر أهمية من سواحل شمال إفريقيا؟ فلا واحدة من المستعمرات التي أقيمت حتى يومنا هذا في أي بقعة من العالم، تستطيع أن تقارن مع هذا الساحل، سواء في مناخه أو غلاله الطبيعية، وفي أي النواحي تستطيع الشعوب الأوروبية أن تجد الموارد التي لا تنضب لهذه البقعة الجميلة، التي تنمو فيها بصفة شبه تلقائية أغلب المحاصيل التي توجد عند كامل الآخرين".[1]

ثانيا - الدوافع العلمية:

لقد كانت الجزائر مقصدا للعديد من الرحالة الأوروبيّين الذين جاءوا بهدف البحث والاستكشاف، في إطار البعثات التي كانت تنظمها الجمعيات العلمية التي كانت تقوم بتنظيم وتمويل رحلات العلماء والأطباء والدّارسين، ومن ثم تقوم بطباعة أعمالهم ونشرها ضمن نشاطها العلمي. أو في إطار فردي، حبّا في الاستكشاف ولتنمية قدراتهم العلمية، وفي كلتا الحالتين غالبا ما كان الرحالة يضعون لأنفسهم أهدافا محددة مسبقا، حتى يخرجون من رحلاتهم بالفائدة القصوى. وقد اهتموا بدراسة الجغرافيا والمناخ والمنتجات الطبيعية كالأعشاب والأزهار والنباتات، والمساحات الزراعية والصخور

---

[1] - Fillipo Pananti, ***relation d'un séjour à Alger***, le normant , Paris, 1820, pp .576-577.

وقد ظهرت النسخة الفرنسية مترجمة عن النسخة الإنجليزية سنة 1820. ويبدو أن فرنسا لم تجد أحسن من هذا العمل لتشجيعها على احتلال الجزائر بعد ذلك بعشر سنوات فقط بعد أن أسال بانانتي لعابها وأوجد لها المبررات(الأخلاقية) ! لفعلتها، وتجدر الإشارة هنا أنه حتى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج واشنطن كان قد نصح لويس السادس عشر ملك فرنسا بغزو الجزائر حيث " سيكون أكبر عملية صليبية تقوم بها فرنسا، وستكون الجزائر أرضا خصبة لاستيطان أبنائها" انظر: مولود قاسم نايت بلقاسم ، ***شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830*** ، الجزء الأول، دار البعث، قسنطينة، 1985، ص.220.

والمرجان ومجموعة الحيوانات والعصافير الموجودة بالإيالة، وحتى الآثار الرومانية، والأمراض التي كانت متفشية آنذاك في العديد من مناطق العالم، ومن بينها الجزائر كانت موضع بحثهم ودراستهم.

فـــدارندا لم تكن وجهته الجزائر التي وجد نفسه فيها دون إرادته، إلا أنه لم يخرج من داره تاركا وراءه أهله ووطنه - وقد كان شديد التعلق بهم - إلا لحرصه الشديد على تعلم لغة أجداده — الإسبانية — وثقافتهم فكان دافعه العلمي هو الذي ورطه في الأسر، وقد انعكس ذلك جليا على وقائع الحياة اليومية في الجزائر من 1640 إلى 1642 التي نقلها لنا بعد ذلك بصدق هذا الرحالة الأسير.

أمّا توماس شو فإن تكوينه العلمي الذي وصل فيه إلى درجة الدكتوراه، هو الذي جعله يستغلّ وقته أثناء عمله مع الوكالة التجارية الانجليزية طيلة الإثنتي عشرة سنة التي قضاها في الجزائر للبحث والدراسة، حتى يتسنّى له كتابة الجزء المتعلق برحلته في إيالة الجزائر، والذي يشكل أحد أقسام تصنيفه الهام حول رحلاته إلى المغرب والمشرق. وهذا بالرغم من أن عمله كان دينيا بحتا يقتضي منه الإشراف على كنيسة الوكالة التجارية والنظر في شؤون الرعايا التابعين لها.

وقد غلب الطابع العلمي الخاص بالجغرافيا والمناخ والمنتجات الطبيعية والحيوانات التي تشتهر بها المنطقة على رحلته في إيالة الجزائر حيث خصص له فصلين كاملين[1]، فافتقر عمله إلى الجانب العلمي الإنساني والاجتماعي.

بينما كانت زيارة الطبيب الفرنسي بايسونال (J.A Peyssonnel)، لسواحل بربارية في سنتي 1724و1725 واضحة الأهداف حيث كان يطمح لانجاز مهمة علمية أرادها أن تكون مهمة رسمية، لكنها لم تحُز لا على الاعتراف ولا على التمويل من

---

1 - أما الفصل الثالث والأخير حول رحلته في إيالة الجزائر فقد خصصه للعلوم والفنون والصناعات والأخلاق والممارسات والعادات واللباس... الخ انظر:

Thomas Shaw, ***voyage dans la régence d'Alger***, traduit par J. Mac Carthy, bouslama ,2éme édition, Tunis, S.D.

السلطات الفرنسية. فقد كان يريد دراسة أسباب عاصفة من الطبيعة الحقيقية للمرجان، الذي اعتقد في الأول أنه معدني ثم نباتي، وتوقع هو بصدق أنه حيواني. وقد أيّدت الأبحاث التي قام بها حول هذا الموضوع في غضون شتاء 1724-1725 هذا الرأي ولكنه لم يستطع إقناع الأوساط العلمية الفرنسية بما توصل إليه والتي لم تجزه إلا بعد مدة طويلة.

وقد وجد بايسونال في شمال إفريقيا المكان المناسب لمواصلة دراسته حول الطاعون، الذي توفي به والده الطبيب أثناء انتشار الوباء المهول الذي عاث فسادا في مرسيليا (Marseille) سنة 1720[1].

وفي سنة 1732 وصل إلى مرسى الجزائر، الطبيب الألماني الرحالة جون أرنست هبنشترايت (J-E, Hebenstreit) مُوفدا من قبل أوغست الثاني[2] (Auguste II) الذي أراد إغناء مجموعته الحيوانية وتزيينها بعجائب ونوادر إفريقيا، فلم يتردّد في الموافقة عندما اقتُرِحَ عليه أن أحسن وسيلة لذلك تتمثل في تنظيم بعثة تتكفل بإحضار التشكيلة المطلوبة من هذه القارة، ولكن هذا المشروع الشائك جدا في ذلك العصر، لم ير النور إلا عندما تقدم عالم شاب من جامعة لايبزيغ (Leipzig) كمترشح وعرض خطة مجدية لتحقيقه. ولم يكن هذا الشاب سوى هبنشترايت الذي كان قد حصل لتوّه على درجة الدكتوراه في الطب، نظير أبحاثه في علم المعادن وعلم النبات خاصة، وقد كان مكلفا في الفترة نفسها بالإدارة العلمية لحديقة نباتات كبيرة يملكها أحد تجار لايبزيغ الأغنياء، وتميّز هبنشترايت بتمكُّنه من اللغات اليونانية واللاتينية وخاصة الفرنسية التي سوف تمنحه مساعدة لا يستهان بها أثناء رحلته إلى شمال إفريقيا.

---

[1] - Denise Brahimi, ***Op. cit,*** p. 131.

[2] – أوغسبت الثاني : ولد بدرسدن (Dresde) عاصمة سكسونيا (Saxe) عام 1670، أمير سكسونيا وملك بولونيا (1697-1733). اعتنق الكاثوليكية حتى يصير ملكا على بولونيا، خلع عن العرش سنة 1704 من قبل شارل XII، لكنه أعيد إليه بعد تدخل الجند الروس. توفي بفرصوفيا (Varsovie) عام 1733، وبموته تلقى هبنشترايت الأمر بقطع الرحلة والعودة فورا إلى درسدن بعد أن زار إيالات الجزائر وتونس وطرابلس وكان يتأهب للسفر إلى السنغال، انظر :

Mounir Fendri, ***Op.cit***, pp. 72,75 و Philippe Merlet dir., ***Op.cit***, p .1184.

وقد حاز مشروع هبنشترايت على موافقة الملك، بعد أن استند في موضوعه على أن المستوى المعرفي للعلوم الطبيعية في القارة الإفريقية متأخّر نسبيّا، وأنّ بعثةً في هذا الاتجاه سوف تؤدّي لا محالة، إلى إثراء كبير للعلم والمعرفة فضلا على أن صاحبها سيكلل بالمجد والشرف الكبيرين.

وهكذا أُوفد هبنشترايت إلى شمال إفريقيا على رأس بعثة علمية، مهمتها الرئيسة تتمثل في جلب حيوانات وطيور وأعشاب وأزهار ونباتات وصخور وأشياء أخرى كثيرة معينة كل على حدة. وقد كُلّلت مهمة هبنشترايت بالنجاح بفضل المساعدة التي تلقاها من طرف عبدي داي، كما يعترف بذلك "هبنشترايت" نفسه حيث يقول: "وبعد أن تأكد الداي من أن أبحاثنا تشرّفُ بلاده، وبعد أن أوضح له القنصل بأنه لم يكن في نيتنا أي تصرف عدواني ضد كل ما يمس بسلطته، أخبَرَنا بواسطة مترجمه بأن بلده مفتوحة لنا وأننا نستطيع أن نعتمد على حمايته"، وقد وفى الداي بوعده نحو هبنشترايت وبعثته ومنحهم كل التسهيلات لأداء مهمتهم، وأذِن لهم بالانضمام إلى إحدى الفرق العسكرية التي كان من المقرر لها أن تجوب منطقة المدية، حيث زاروا كل من المدية وملیانة والبليدة، وتحصّلوا على كمية معتبرة من النباتات والحيوانات ونوادر أخرى[1]. كما زوَّدَهم بالتوصية اللازمة حتى يجدوا المساعدة والنجدة لدى باي قسنطينة[2]، والذي أحسن

---

[1] – طلب هبنشترايت أثناء هذه الرحلة القصيرة من أغا الصبايحية أن يمده بنعامة، فسارع هذا الأخير إلى تنفيذ طلبه، مع أنها كانت تخص باي التيطري. ومع ذلك حين رفض عبدي باشا أن يعطيه لبؤة صغيرة كان الداي يعتزم إرسالها ضمن سفارة متوجهة إلى القسطنطينية كهدية للسلطان العثماني، وبعد كل العناية والدعم الذين تلقاهما من الداي، لم يستح هبشترايت من وصف الداي بالوقاحة لأنه رفض طلبه.

وتجدر الإشارة هنا، أنه كان من ضمن المشاركين في هذه الرحلة، الإنجليزي الدكتور شو انظر:

Mounir Fendri, ***Op.cit,*** pp. 85, 88, 90, 91.

[2] – هو الباي حسين قليان المدعو بوكمية، امتازت فترة حكمه التي دامت ثلاثة وعشرين سنة متعاقبة (1713-1736)، بخلوها من الثورات المحلية مما يدل على أنه كان في مستوى منصبه. انظر:

Eugène Vayssettes, ***histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837***, *Bouchene, Paris, 2002.* p .99

استقبالهم بدورهم، وخصّص لهم غرفة خاصة وأخرى كنيسة للرجوع إلى الأماكن التي تحوي الآثار الرومانية[2].

وفي الفترة الزمنية نفسها جاء إلى شمال إفريقيا أوبرباريا طبقا لمصطلح ذلك العصر، كل من عالم الطبيعيات الفرنسي دي فونتين (L.R Desfontaines) والقس الفرنسي بواري (L'abbé Poiret) حيث اهتم الأول بالنباتات والأزهار والطبيعة البكر والأرض الخصبة والزراعة، وأخذ معه بعد المدة التي قضاها بالجزائر وتونس من 1783 إلى 1786 مجموعة هامة من الأعشاب حفظت بمتحف العلوم الطبيعية بباريس، استعملها في إصدار كتابه حول نباتات الأطلس، أما الثاني فقد جاء إلى الجزائر سنة1785، واهتم في أبحاثه بالتاريخ الطبيعي لنوميديا[3] (Numidie)، وتوقع أن يجد رجل الطبيعة الذي يعيش على فطرته، الفظّ على الأرجح ولكنه طيب وشريف، لكنّ معرفته ببعض قبائل البدو العربية في جوار القالة، قريبا من بونة (Bône) وفي الإقليم القسنطيني، بدا له بخلاف ذلك رجل بربارية (Barbarie) منتعشا بالمشاعر الأكثر غدرا ومكرا وفسادا، وهكذا وجد بواري نفسه مجبرا على الإقرار سريعا بأن العرب البدو لا علاقة لهم على الإطلاق برحل

---

[1] – يقول هبنشترايت أنه أثناء الهجوم الذي شنه عليهم الأهالي، هرب أحد الحراس بينما تظاهر الآخر بالهرب وهو مرتد ألماني وما لبث أن عاد ومعه بندقية ومسدس وسيف وأطلق النار على المهاجمين فأصاب البعض وأجبر البقية على التفرق والانهزام. و لم يكن هذا المرتد الألماني حسب تعبير هبنشترايت، سوى الرحالة الدانماركي هارك أولوفس الذي كان أسيرا عند باي قسنطينة حسين قليان ووصل بعد مدة من الخدمة إلى رتبة خزندار سنة 1727–1728. انظر:

Martin Rheinheimer, **Der fremde sohn Hark olufs viederkehr aus der sklaverei,** Wachholts, Auflage, 2003, p.58.

[2] - Mounir Fendri, ***Op.cit*** , pp. *72-74, 81-82, 93.*

[3] – نوميديا : قطر شمال إفريقيا القديمة، يمتد من قرطاج حتى نهر ملوية بالمغرب الحالي، يسكنه شعب بربري من الرحّل، أسسوا في القرن الثالث قبل المسيح مملكتين اتحدتا سنة 203 قبل الميلاد تحت حكم ماسينيسا حليف الرومان، ثم خضعت بعد ذلك لروما بعد انتصار ماريوس على يوغرطة سنة 105 قبل الميلاد ويوليوس قيصر على يوبا سنة 46 قبل الميلاد، وصارت المملكة مقاطعة رومانية، ثم عربت بعد أن غزاها الوندال سنة 429م ثم البيزنطيين في القرنين السابع والثامن الميلاديين انظر: Philipe Menet dir., ***op.cit,***p.1605.

الطبيعة الأسطوري، الذي اختلقته فلسفة روسو[1]، وحتى إذا افترضنا أنهم كانوا قديما شرفاء وذوي شهامة فقد انحلت أخلاقهم وانحطت منذ ذلك الحين[2].

ثالثا- الدوافع الإنسانية والدينية:

بلغ عدد الأسرى الموجودين بإيالة الجزائر حدا كبيرا، نتيجة الحرب البحرية بينها وبين أوروبا، التي كانت " تتضمن إلى جانب الاستيلاء على سفن الأعداء وغنائم أخرى من شتى الأنواع، استعباد الرجال المأسورين من الملاحين والمسافرين على ظهر تلك السفن، حتى أنه في الفترة الحاسمة من حرب السباق هاته، فيما بين القرن السادس عشر والقرن السابع عشر. كان بمدينة الجزائر التي أصبحت في عهدها المدينة الأكثر ازدحاما بالسكان والمدينة الأقوى في المغرب ما بين خمسة و عشرين ألف و ثلاثين ألف عبد"[3].

فإذا أضفنا إليهم "الأرقاء الكثيرين الذين كان يملكهم سكان المدن الأخرى من الإيالة أو الذين يملكهم السكان بداخل البلاد أو القبائل المتنقلة "[4] فإن الرقم يكون لا محالة أكثر بكثير "وتدل الشواهد التي لدينا بوضوح على أن عدد الأسرى كان في بعض السنوات أكثر منه في سنوات أخرى، ومع ذلك فإنه من الممكن أن نقدر بأن معدل الرقم هو حوالي ثلاثة آلاف أسير في السنة خلال العهد الأول (1520-1660)، وقد يكون الرقم أقل من ألفين في السنة في العهد الثاني (1660-1830)"[5].

---

[1] - جون جاك روسو (Jean Jacques Rousseau)، ولد بجنيف (Genève) سنة 1712 وتوفي بأرمنونفيل (Ermenonville) سنة 1778، فيلسوف وكاتب باللغة الفرنسية انظر: Philipe Merlet dir., ***op.cit,*** p. 1692

[2] - Denise Brahimi, ***Op. Cit,*** pp. 153,165.

[3] - سالفاتوري بونو ، "وضع الجاليات الأوروبية في المغرب قبل الإستعمار" ، ***مجلة الأصالة***، العدد 25، الجزائر، 1975، ص ص. 144-146.

[4] - جون ب وولف، ***المرجع السابق***، ص .207.

[5] - ***المرجع نفسه***، ص ص .207، 208.

ولقد كان هؤلاء الأسرى في الغالب من الدول التي تطل على البحر الأبيض المتوسط والتي كانت في حرب دائمة مع الجزائر كإسبانيا وإيطاليا و مالطا[1]، مع وجود عدد لا بأس به من أسرى الدول الأوروبية الأخرى، كفرنسا والبرتغال وهولندة والدانمارك وألمانيا وروسيا وإنجلترا، وكان معظمهم من البحارة الذين أُسِروا في البحر، والباقي وهم كثرة كذلك كانوا من أهل القرى والمدن الذين اُختُطفوا أثناء الغارات. وكان فيهم النبلاء وكبار الملاك والتجار وضباط السفن والمسافرون البرجوازيون، بالإضافة إلى رجال البحر والفلاحين الفقراء، وبالتالي كان الأغنياء وأصحاب الوجاهة يُفتدون أما البقية فمصيرها العبودية الدائمة[2]، مما استدعى تدخل الدول الأوروبية لتحريرهم عن طريق البعثات والوفود السياسية، التي كانت تفاوض من أجل إطلاق سراح رعاياها، أو عن طريق "رجال الدين الذين كانوا أول الأوروبيين الذين يؤُمُّون المدن البربرية لغايتين اثنتين: مساعدة العبيد المسيحيين روحيا، والسعي إلى تحصيل المبالغ اللازمة لافتدائهم في حدود الأموال المتاحة لهم " [3] والواردة إليهم من صدقات المحسنين الأوروبيين.

وكذلك بناء المستشفيات والكنائس لهم، فقد قام الإسبان بإنشاء مؤسسة كاثوليكية بمدينة الجزائر هي عبارة عن مستشفى أقيم به مذبح ترتل عنده الصلاة يوميا، وقد لعب هذا المستشفى دورا كبيرا في تمريض الأسرى خاصة في فترات الوباء وقد وصفه كاثكارت بأنه "ن أكبر المؤسسات الخيرية في العالم كله، حيث يقدم رعايته لجميع المسيحيين الأسرى دون أن يأخذ في الإعتبار عقائدهم وطوائفهم الدينية وقومياتهم"[4].

---

[1] – جزيرة مالطا التي تنازل عنها شارل كينط (1500-1558) لفرسان القديس يوحنا سنة 1530 شرط أن يقاوموا المد العثماني وقد كانوا من ألد أعداء الدولة العثمانية وجميع الإيالات التابعة لها نظرا لماضي هذا التنظيم الذي أسس في مدينة القدس سنة 1070م ثم التجأ إلى رودس سنة 1309م وأخيرا استقر بمالطا من(1530 إلى 1798).

Philipe Merlet dir., ***op.cit***,pp.1539 , 1703.

[2] –جون وولف، *المرجع السابق*، ص.208.

[3] –سالفاتوري بونو، *المرجع السابق*، ص.146.

[4] – جيمس ليندر كاثكارت، *المصدر السابق*، ص.103.

أما الفرنسيون الممثلون في طائفة كهنوت الرحمة، فقد قاموا كذلك ببناء دير بمدينة الجزائر يشرف على نشاطه قساوسة، تتلخص مهمتهم في مساعدة الأسرى وإقامة الصلاة والوعظ والإرشاد في السجون، وحتى في منازل المسيحيين الكاثوليك التي يوجد فيها مصلى، ويقدمون الصدقات للعبيد في المناسبات حينما تسمح حالتهم المالية بذلك، ويتولون رعايتهم في أوقات الغزو حين يرسلون مقيدين بالأغلال اثنين اثنين، إلى الأرياف[1].

وقد جاء العديد من الرحالة الأوروبيين إلى الجزائر في إطار رحلات الفداء، وآخرين كان من ضمن أولوياتهم تحرير الأسرى وبحث السبل الكفيلة لافتدائهم، بينما اكتفت البقية الأخرى بالكتابة عنهم والإشارة إلى أحوالهم المادية والمعنوية.

فـــوليم ليثغو الرحالة المغامر، لم يمنعه تعاطفه مع أبناء بلده من تحميلهم مسؤولية وقوعهم في الأسر، "فبعد أن وصف الحالة التعيسة التي كان عليها عدد كبير منهم وأغلبهم من الإسبان الذين يشتغلون في حقول وبساتين أسيادهم الجزائريين ، تأسف من كون السفن الإنجليزية الصغيرة أو الضعيفة تغامر بنفسها في البحر الأبيض المتوسط، وتنهزم أمام الأسطول الجزائري ويساق أفرادها أسرى، ثم يستنجد هؤلاء بالمواطنين الإنجليز لدفع الفدية وتخليصهم من الأسر"[2]. فالأحرى بهم أن يعاقبوا ويتركوا هناك تأديبا لهم على مجازفتهم داخل أخطار معروفة دون حماية ودون مدفعية وذخيرة، تليق بالسفن الكبرى وأن لا تستعمل أي وسيلة لمساعدتهم أو افتدائهم[3].

ولقد كان من ضمن مهمة ج.ب. سالفاغو استطلاع وضعية أسرى البندقية

---

[1] – جيمس ليندر كاثكارت، ***المصدر السابق***، ص.104.

[2] – ميشيل آبار، ***المرجع السابق***، ص.48.

[3] – Pierre Grandchamp, ***le prétendu voyage*** ...,Op.cit ,p.224.

ولقد كان ليثغو من الرحالة القلائل الذين عارضوا جمع الأموال لافتداء الأسرى للأسباب المذكوره أعلاه، وقد سب سفراء بلاده بالقسطنطينية سبا منكرا لأنهم لا يفعلون شيئا إزاء هجمات السفن الجزائرية ضد السفن الانجليزية وبالتالي فهم ليسوا بأهل لمناصبهم.

بالإيالة والبحث عن الطريقة التي تمكن من تحريرهم[1].

أما الأب دان فقد كُلّلت رحلة الفداء التي قام بها إلى الجزائر، بتحريره لاثنين وأربعين أسيرا فرنسيا عاد بهم إلى فرنسا في شهر مارس من سنة 1635[2] في حين استطاع طوماس هيز، بعد ثمانية عشر شهرا من وصوله إلى الجزائر من إبرام معاهدة يوم 06 ماي 1677 بين هولندا والجزائر حول تحرير الأسرى، وتمكن أثناء إقامته الثانية بالجزائر والتي انتهت يوم 06 فيفري 1683 من افتداء 197 مستعبدا هولنديا، عادوا معه إلى هولندة على متن سفينتين حربيتين[3].

أما رحلة الأب الترينيتاري الإسباني فرنثيسكو خيمينيس فقد كانت نموذجا للرحلة التي جمعت بين الدافع الإنساني والدافع الديني، فبعد فتح وهران سنة 1708 في عهد مصطفى باي الملقب ببوشلاغم، حاول إقليم قشتالة الترينيتاري بناء مستشفى في وهران لمداواة الأسرى الإسبان الذين أُسر عدد كبير منهم أثناء سقوط وهران، وجلب العديد منهم من سواحل أسبانيا، بواسطة السفن التي كان يسلحها الباي بوشلاغم، إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام رفض الداي "علي باشا سوكلي" السماح لرجال الدين بالمرور إلى وهران للقيام بأعمال التمريض والمواساة للأسرى، لأنه مضى على سقوط قاعدة وهران في أيدي الجزائريين سبع سنين فقط، ويخشى أن يكون أولئك القساوسة من الجواسيس الذين يعملون لحساب ملك أسبانيا، كي يجمعوا المعلومات اللازمة عن القاعدة والتي تمكنهم من استرجاعها.

وبعد أعوام من ذلك جاءت رحلة خيمينيس إلى الجزائر حيث استطاع أن يمر من قرطاجنة إلى وهران بعدما تغلب على بعض الصعوبات هو ورفيقه، وأخيرا سمح لهما الباي بوشلاغم بالدخول إلى وهران يوم 04 ماي 1718 وكانت إقامتهما في منزل

---

[1] - Pierre Grandchamp, ***une mission délicate***..., *Op.cit*, p.3.

[2] – Denise Brahimi, ***Op.cit***, p.13.

[3] – Gerard van Kriken, ***Op.cit***, pp. 69,75.

القنصل الإنجليزي[1]. وقد حاول خيمينيس إحياء موضوع بناء المستشفى فخاطب الباي الذي أحاله على داي الجزائر المخول وحده بإعطاء الإذن بذلك فرفض بدوره[2]، وهكذا تحول مشروع بناء المستشفى لمداواة الأسرى وافتداء ما أمكن منهم إلى تونس، حيث لم يجد الصعوبة التي وجدها بالجزائر، وبعد أن فشل خيمنينيس في مهمته الأولى استطاع أن يفتدي أربعة أسرى في جلسة شرب فيها القهوة مع الباي في قصره، وقد ادعى أن أحد الأسرى وهو شاب جميل الطلعة قد تعرض لأصناف العذاب حتى يترك دينه ويدخل في دين الإسلام، إلا أن الشاب تحمل كل ذلك بالرغم من كل الإغراءات حيث عرض عليه الباي تزويجه بأخت زوجته ووعده بمال كثير وأن يجعله خزنداره!

ولم يأل هذا الأب الترينيتاري جهدا في التبشير بين الأسرى، حيث بادر كما يقول إلى إقامة الصلوات والإشراف عليها لافتقار الأسرى إلى قسيس يواسيهم في شقائهم، وحاول إقناع المرتدِّين منهم (المهتدين) بأن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى نور الكنيسة، خشية أن يسقط آخرون في الهاوية نفسها ! كما قام بتعليم الشبان الذين أُسروا صغارا كل ما يتعلق بالدين المسيحي حتى يحافظوا على دينهم ولا يتنكروا له[3].

ومن مرسيليا أبحرت يوم 15 ماي 1725 سفينة نحو الجزائر تحمل ضمن ركابها أربعة آباء من هيئة الثالوث المقدس الفرنسية (Sainte Trinité) كانوا في مهمة لافتداء الأسرى المسيحيين، ولقد كانت وجهة الآباء الأصلية مكناس، حيث كانوا يأملون في

---

[1] – يقول عنه الأب خيمينيس أنه بالرغم من كونه من المرتدين الأشداء فقد ألهمه الله لإكرامنا، وقد سمح لنا رغم ردته أن نقيم القداس في منزله وأن نشرف على الشؤون الروحية ونبشر بكلام الله بين الأسرى، انظر: ميكال دي ابيلزاو والهادي الوسلاتي، *المرجع السابق*، ص. 197، لقد كانت العلاقات بين الجزائر وانجلترا حسنة جدا خاصة وأن لهم عدوا مشتركا متمثلا في اسباينا الكاثوليكية ولذلك لا نستغرب أن تعين انجلترا قنصلا مسلما شديد التمسك بدينه كما وصفه خيمينيس يمثلها بإيالة الجزائر.

[2] – كان الخزنجي محمد افندي بن حسن قد خلف علي باشا بعد وفاته وصار دايا للجزائر سنة 1717، انظر: عزيز سامح التر، *المرجع السابق*، ص.468.

[3] – ميكال دي ابيليزا والهادي الوسلاتي، ، *المرجع السابق* ، ص ص. 192-194، 196-198.

الحصول على افتداء عام لجميع الأسرى الذين يملكهم السلطان مولاي إسماعيل[1]، ولكنه خيَّب آمالهم، فلم يستطيعوا تحرير سوى سبعة عشر أسيرا وسط ظروف صعبة عجلت بخروجهم من البلد.

ولما كانوا يمتلكون من الموارد ما يكفيهم للذهاب إلى الجزائر وتحرير أسرى آخرين، فقد قرروا الذهاب إليها في رحلة فداء جديدة حيث وصلوا إليها في الفاتح من جوان 1725، ومكثوا فيها نحو شهرين في ضيافة قنصل فرنسا والآباء الإسبان الذين كانوا يديرون مستشفى المرضى المسيحيين، واستطاعوا بعد عدة مقابلات مع الداي كور عبدي[2] افتداء ستة وأربعين أسيرا لم يكونوا كلهم من الفرنسيين[3]، بعدما ترك لهم الداي حرية التفاوض مع مالكي الأسرى الذين سهلوا لهم الأمر، وحتى الداي نفسه باع لهم بعض أسراه ولكن بثمن غال.

وغادروا الجزائر يوم 26 جويلية من السنة نفسها، بحصيلة من الأسرى فاقت ضعف ما تحصلوا عليه من رحلتهم الرئيسية إلى مملكة المغرب[4].

---

[1] – بعد وفاة مولاي الرشيد حاكم فاس سنة 1672 خلفه مولاي اسماعيل الذي دام حكمه 57 سنة وبالرغم من طول فترة حكمه فإنه لم يتمكن من تحقيق أي انتصار على الجزائريين وقد بذل جهدا كبيرا لتوطيد الأمن والاستقرار في البلاد حيث أسس جيشا نظاميا وجمع السلاح من الأهالي وبعض القبائل وبهذه الوسيلة تمكن من إقرار الأمن والهدوء ولكن أهالي فاس كانوا يميلون إلى الأتراك بسبب الضريبة التي فرضها عليهم. للمزيد من الإطلاع، انظر: سامح عزيز التر، *المرجع السابق*، ص ص. 437، 444.

[2] – انتخب الداي عبدي سنة 1724 بعدما قام تمرد الرياس بقتل الداي محمد باشا حيث أصيب برصاصة بينما كان يتجول وسط التحصينات فأردته قتيلا، وقتل حينها عدد من الشواش والخوجات، وهرع العصاة إلى قصر الجنينة مباشرة لكن الخزندار بالرغم من إصابته كان قد وصل القصر قبلهم فأغلق الأبواب في وجوههم وأعلن عبدي الأعمى دايا جديدا على البلاد وكان عبدي الأعمى يشغل منصب آغا السباهية فأصدر الداي الجديد أمرا بإلقاء القبض على قتلة محمد باشا ، وبالفعل فقد تمكن الحراس من إلقاء القبض على جميع المتمردين فقطع رؤوسهم جميعا. انظر: سامح عزيز التر، *المرجع نفسه*، ص. 472.

[3] – كان من بين الأسرى المفتدين أسيرا دانماركيا عمره 77 سنة ، حيث مكث في الأسر 41 سنة.

[4] – Jean de la Fye et autres , ***Op.cit,*** pp.9,143,145-151,158-160.

رابعا- الدوافع السياسية و الثقافية:

لم تخل القائمة الطويلة للرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزائر وأقاموا بها خلال العهد العثماني من أولئك الرحالة الذين ما جاؤوا إلى الجزائر إلا بدافع من روح المغامرة وحب الاستطلاع، ورغبة في دراسة أحوال الشعوب ومعرفتها "وحبا للسفر لذاته الذي يمكنهم من تغيير الأجواء وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع[1]"، وإذا كان على رأس هؤلاء الرحالة وليم ليثغو فإن الرحالة الأسباني مارمول[2] لم يكن أقل منه مغامرة ولا شأنا وهو الذي سبقه إليها بأكثر من نصف قرن.

لقد أبحر مارمول مع شارل كينط[3] أثناء حملته على تونس[4] في جوان 1535 و لم

---

[1] – فواد قنديل، *المرجع السابق*، ص.20.

[2] – ولد مارمول بغرناطة حوالي سنة 1520 من أبوين مورسكيين كما تدعي بعض المؤلفات بينما تنفي ذلك أخرى تجنبا لأي إشارة لأصوله الإسلامية ، والمورسكيون هم مسلمو إسبانيا الذين أجبروا على التنصر ثم طردوا بعد ثورة 1568-1571 وقد بلغ عدد المهجرين أكثر من 200000 شخص. انظر:

Nour-eddine Malki, ***Op. cit***, pp.38,46.

[3] – ولد شارلكان – المدعو شارل الخامس أو شارل كينط – عام 1500 وتوج ملكا لأسبانيا سنة 1516 ثم امبراطورا على ألمانيا كوريث شرعي للأسرة الهابسبورغية بعد وفاة جده ماكسيمليان وكان والده قد توفي سنة 1515 وترك له حكومات أمريكا وقشتالة وأراغون ونافارا ونابولي وصقلية ومملكة هولندة وغدت فرنسا محاصرة بين أملاكه الواسعة، إزاء ذلك نشبت الحرب بينه وبين فرانسوا الأول وأسفرت عن سقوط فرانسوا الأول أسيرا بيد الإسبان سنة 1526 وبعد نجاته من الأسر عاد ثانية إلى إعلان الحرب واستمرت الحرب حتى سنة 1547 ثم تجددت ثانية في عهد هنري الثاني ابن فرانسوا الأول وانتهت بصلح عقد سنة 1552 وقد اعتبرت فرنسا الهزيمة التي حلت بشارلكان سنة 1541 من قبل الجزائريين نصرا سياسيا لها والتي نتج عنها إلقاء شارلكان لتاجه في البحر وإرسال جبته للبابا والإنزواء في معبد الرهبان في استرامادورة وظل فيها إلى أن توفي سنة 1558 بعد أن ترك لابنه حكم إسبانيا وأمريكا وصقلية وإيطاليا وهولندا وتنازل لإخيه عن ألمانيا انظر: سامح عزيز ألتر *المرجع السابق*، ص ص .165-166.

[4] –حرض البابا شارلكان على الاستفادة من فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروب خارجية – كان السلطان سليمان مستمرا بحربه مع الإيرانيين – موضحا له أن وجود الأتراك في الجزائر يحد كثيرا من نشاطه السياسي والاقتصادي، كذلك فإن دخول الأتراك إلى تونس يشكل ضررا كبيرا على العالم المسيحي عامة وإسبانيا خاصة=

يتعد عمره الخامسة عشر، وقبض عليه المسلمون بنواحي وهران سنة 1545[1]، حيث اقتيد إلى تلمسان وفاس ومراكش على التوالي، ودام أسره بالأراضي الإسلامية سبع سنين وثمانية أشهر، مما سمح له بمعرفة البلاد والعباد، ومكنته هذه المدة من جمع قسم هام من المعلومات الضرورية لتأليف كتابه "وصف عام لإفريقيا"[2]. وبعد تحريره من طرف رجال الدين المسيحيين سنة 1557 اختار مارمول البقاء في شمال إفريقيا – وهنا تبرز روح المغامرة عنده – ليواصل بكل حرية رحلاته في المناطق التي لا زالت مجهولة بالنسبة إليه، وقد أضاف إلى المدة التي قضاها بالأسر أكثر من أربع عشرة سنة أخرى، فصار مجموع إقامته بشمال إفريقيا اثنتين وعشرين سنة، تمكن خلالها من تعلم اللغة العربية والعثمانية ومن معرفة جغرافية المنطقة وسكانها وحكامها والأحداث التي وقعت فيها، وباختصار كان مطلعا على تاريخ المنطقة وحضارتها، وبسبب ذلك كاد أن يعين سفيرا لبلاده لدى شريف المغرب، لكن منعه من ذلك أنه لم يكن من النبلاء ولا من الفرسان ولا من أصحاب المترلة الرفيعة التي تؤهله إلى ذلك. فبقي حتى آخر أيامه بغرناطة يلتمس المساعدة والأجر من فيليب الثاني ابن ووريث شارل كينط[3].

=فكانت حملة شارلكان على تونس حيث شارك فيها إلى جانب جيشه عددا كبيرا من الألمان والإيطاليين إضافة إلى فرسان مالطا وقد مارسوا وحشية مفرطة في مدينة تونس وكانت القوات الإسبانية أكثر شهرة من غيرها من القوات الأخرى ، فلقد بحث الإسبان في المنازل والصناديق وبيت المؤن، وحتى الأبار البعيدة و لم يتركوا مكانا إلا وبحثوا فيه عن الأهالي ، وبعد ذلك بدأوا باتباع أساليب أكثر وحشية مما اتبعوه سابقا، لقد هدموا المدارس والمساجد والجوامع ومزقوا وأحرقوا الكتب القيمة والنادرة، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء، انظر: سامح عزيز إلتر، *المرجع السابق*، ص ص.113، 115، 118، 119.

[1] – لم تذكر المراجع المطلع عليها إن كان مارمول قد شارك في حملة شارل كينط على الجزائر في أكتوبر 1541 أي قبل أسره بأربع سنوات وهي الحملة التي انتقم فيها حسن آغا لوالده بالتبني خير الدين باربروس وهزم شارل كينط وحصل على لقب باشا مكافأة له، كما لم تذكر الكيفية التي أسر بها وهل كان ذلك في البر أم في البحر وسبب تواجده بنواحي وهران.

[2] – يعتبر وصفه لإفريقيا منجما من المعلومات اقتبس الجزء الأكبر منها من المؤلفات العربية التي ذكرها بأمانة ومن بينها مؤلفات كل من ابن الرقيق المسعودي الأصفهاني البوني الغزالي البكري ابن خلدون وغيرهم ومن المصادر غير العربية ليون الإفريقي انظر: Nour-Eddine Malki ,***Op. Cit.*** pp.38-43.

*3 – **Ibid**, pp.37-38.*

أما في الربع الأول من القرن السابع عشر فقد كان الدور لسوليم ليثغو الذي جاء إلى الجزائر "مدفوعا برغبة جامحة لزيارة هذه البلاد المجهولة التي كان الشغل الشاغل في أوروبا آنذاك هو الحديث عن بطولات أبنائها وأعمالهم الباهرة أو المنكرة بحسب الآراء"[1] في ظروف أقل ما يقال عنها أنها كانت غير مناسبة للسياحة والترحال حيث وقعت بعض الأحداث التي هزت المنطقة ابتداء من السنة الأولى من القرن السابع عشر والتي كان من أبرزها:

- الحملة الإسبانية الفاشلة على الجزائر .

- هجوم سليمان[2] باشا على حصن الباستيون والبناءات التابعة له حيث نهبها وخربها تماما بعدما أصبحت مركزا للفساد والجاسوسية وقتل قسما من الموجودين فيها ونقل الباقين أسرى إلى الجزائر.

- هجوم التوكسانيين على الجزائر.

- الوباء يفتك بمدينة الجزائر ومن ثم انتقل إلى جنوب فرنسا.

- هجوم فرسان القديس يوحنا على الجزائر.

- حادثة فرار سيمون دانسا وسرقته للمدفعين وقطع العلاقات مع فرنسا.

- تمرد زواوة الذين استولوا على متيجة وخربوها مما أدى إلى احتلال كوكو مركزهم.

- هجوم فرسان القديس يوحنا على الجزائر للمرة الثانية.

- الجفاف الذي استمر خلال سنتي 1611 و 1612 حتى طلب من الأندلسيين مغادرة البلاد.[3]

---

[1] - ميشيل آبار، *المرجع السابق*، ص.46.

[2] - كان سليمان باشا قد عين سنة 1600 مكان حسن باشا بوريشة، الذي عزل نظرا لاضطراب أحوال الجزائر وكثرة الشكاوي المقدمة بحقه حتى أن سفير فرنسا توسل الى الديوان العثماني من أجل عزله انظر: سامح عزيز التر، *المرجع السابق*، ص.311.

[3] - *المرجع نفسه*، ص ص.312-326.

ومن حسن حظ الرحالة ليتغو أن بلاده اسكتلندا لم تكن في حالة حرب مع الجزائر وكان ملكها جاك السادس ملكا في الوقت نفسه على انجلترا التي كانت علاقتها حسنة مع الجزائر، وكذلك لوجود عدد من القباطنة الإنجليز ضمن الأسطول الجزائري[1].

ولكن هذه الظروف الصعبة لم تمنع ليثغو من زيارة الجزائر قادما إليها من تونس ومتوجها بعدها إلى المغرب، بل إن جرأته قادته حتى إسبانيا سنة 1620، بالرغم من أنه يعتبر في نظر المحكمة الدينية الخاصة من الملحدين ومن الأشخاص الذين يسافرون إلى البلاد الإسلامية، وخاصة الجزائر ألد أعداء صاحب الجلالة المتعصب للدين المسيحي، وقد قبض عليه وعذب عذابا شديدا، أشرف فيه على الهلاك لولا تدخل السفير الإنجليزي، فعاد إلى بلاده وهو يحمل إصابات لا سبيل إلى شفائها، ومع ذلك عاوده حنينه إلى السفر فاتجه نحو روسيا سنة 1637 واستمر في طوافه حتى عاد إلى مسقط رأسه حيث توفي سنة 1645[2].

خامسا- الدوافع الاقتصادية:

كان الدافع الاقتصادي وما زال من أهم أسباب الرحلة لما للتجارة وتبادل السلع من فوائد جمة تدر على أصحابها الأرباح الطائلة، إلا أن اعتماد إيالة الجزائر على نشاط القرصنة[3] الذي كان يوفر لها جل ما تحتاجه من منتجات أوروبا وأمريكا وآسيا، ويخول لها استرقاق الأسرى المسيحيين، ومن ثم فديتهم بمبالغ كبيرة تملأ بها الخزينة، إضافة إلى نظام الأتوات والهدايا الإلزامية الذي كان يزودها بباقي احتياجاتها الضرورية، من معدات

---

[1] -ميشيل آبار، *المرجع السابق*، ص.44.

[2] - *المرجع نفسه*، ص.53.

[3] - في معرض حديثه عن الحياة الإقتصادية في المناطق التي زارها من الجزائر يقول الورتلاني:"إن موارد حكومة الوحاق من البحر أكثر من مواردها من داخل البلاد، ولكن رغم كثرة الأموال فإن الحكام يبددوها في شهواتهم من ملبس ومأكل ومشرب". انظر :مختار بن الطاهر فيلالي، *رحلة الورتلاني*،دار الشهاب، باتنة، 1998، ص.122.

حربية وسفن ومستلزماتها، كل ذلك منع من ظهور حركة تجارية واسعة مع موانئ أوروبا إلا في نطاق ضيق، وكانت الكفة في أغلبها تميل إلى الجانب الآخر، "فقد كانت التجارة الخارجية لمدينة الجزائر[1] محدودة وقليلة جدا، وقد اقتصرت تجارتها على نشاط المهجرين والأندلسيين واليهود وقلة قليلة من المسلمين، وقد وجد في الجزائر حوالي 2000 يهودي، تركزت تجارتهم على الغنائم التي كان القراصنة يحضرونها من غزواتهم البحرية"[2].

أما الجانب الأوروبي فقد كان مهتما بالعلاقات التجارية مع الجزائر، حتى غدا عمل القنصل الفرنسي وكأنه وكيل تجاري لمدينة مرسيليا، واستطاع الفرنسيون بعد أن تحصلوا على موافقة السلطان العثماني، تأسيس شركة تجارية مختصة في صيد المرجان واستبدال المنتجات الفرنسية بالجلود والقمح والشمع والعسل وغيرها من المحاصيل والسلع التي تندر في بلادهم. وعرفت الشركة فيما بعد باسم الباستيون الفرنسي وحتى انجلترا سارعت إلى أخذ نصيبها من الامتيازات التجارية التي كانت توفرها الإيالة.

وبالرغم من تعرض الباستيون مرات عديدة إلى التخريب والتهديم وما نتج عنه من قتل وطرد للفرنسيين المقيمين فيه، إلا أنه سرعان ما يعاد تأسيسه نظرا للأرباح الطائلة والكبيرة جدا التي كانت تدرها ممارسة الأعمال التجارية منه، ولذلك ظل الفرنسيون يركضون خلف ذلك بكل جهدهم[3].

كذلك كان التجار الأوروبيون يشترون مغانم القرصنة لشحنها من جديد إلى أوروبا، ويقومون بدور الوسطاء في عملية إعادة شراء الأسرى، حيث يعود عليهم هذا النشاط بأرباح معتبرة[4]. والغريب في الأمر أن الرحالة توماس شو لم يتطرق إلى دراسة

---

[1] - كانت القرصنة موردا هاما للجزائر المدينة، أما مقاطعات الإيالة الأخرى فكانت تعتمد علي التجارة والزراعة والصيد لتأمين احتياجاتها.

[2] - سامح عزيز التر، *المرجع السابق*، ص. 145.

[3] - *المرجع نفسه*، ص ص. 152-153.

[4] - سالفاتوري بونو، *المرجع السابق*، ص.146.

علاقات الجزائر التجارية مع أوروبا بالرغم من المدة الطويلة التي قضاها في الجزائر ككاهن لدى الوكالات التجارية الإنجليزية، بينما لم يتوان كوكوفتسوف عن الحديث ولو بشكل فردي -كما أخبر بذلك – عن إمكانية إقامة علاقات تجارية بين روسيا والدول البربرية، ودراسة جدوى ذلك، وإعطاء المعلومات التي تساعد على تحقيق ذلك للبحارة الروس[1].

[1] - Marcel Imerit, ***Op.cit***, p.210.

الفصل الثالث

أهم الجوانب التي تناولتها

رحلات الأوروبيين عن الجزائر

أولا - معطيات عن الحياة السياسية

ثانيا – لمحات عن الواقع الاجتماعي

ثالث -نظرات على الوضع الاقتصادي

رابعا - آراء حول الحياة الثقافية

خامسا – لمحة عن الحياة الطبيعية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

أهم الجوانب التي تناولتها رحلات الأوروبيين عن الجزائر

كانت رحلات الأوروبيين ولا تزال من أهم المصادر الأولية التي غطت تقريبا مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الجزائر أثناء العهد العثماني، بل إن بعض الرحالين من العلماء والأطباء تجاوزوا ذلك إلى دراسة الجغرافيا والحيوان والنبات والمعادن.

فقد تطرقوا في كتاباتهم إلى كل ما له صلة بالحياة اليومية التي كانوا هم أنفسهم يعيشون ضمن نطاقها، فلم يقتصروا على جوانب معينة دون غيرها لأنهم كانوا يسافرون كثيرا و لم تقصر إقامتهم على مدن سكناهم، بالرغم من المخاطر التي يمكن أن تعترضهم أثناء سفرهم والتي كانت تستدعي مرافقة الحراس لهم في كثير من الأحيان والذين كانوا يخرجون معهم بأمر من الداي أو الباي.

ويبدو أنهم بسبب هذه الأخطار المحدقة بهم، لم يعيروا اهتماما خاصا للحياة العميقة في البلاد حيث يضعف نفوذ السلطة الحاكمة أو يكاد ينعدم، وتكثر الحروب والفتن بين القبائل بالإضافة إلى غارات الأعراب وقطاع الطرق الذين يعيشون على النهب والسلب.

كذلك لم يكن المجتمع الإسلامي سرا مكتوما عنهم خاصة الذين وقعوا في الأسر وخدموا في بيوت الدايات و البايات ورجال الحكم وكبار التجار.

أما الذين قصروا اهتمامهم على القرصنة واستعباد النصارى وظروف إقامة الأسرى وما يعانون من بؤس وشقاء وأوجاع وآلام، ووصفوا الحكام قبل الأهالي بأبشع الصفات وحقدوا عليهم. فقد كانوا من رجال الدين الذين تستروا وراء أهداف معلنة كافتداء الأسرى لتحقيق مآربهم الخفية التي كشفها أبناء جلدتهم أنفسهم.

وأما الذين رَكَّزُوا اهتمامهم على كل ما له علاقة بانشغالاتهم آنذاك، فتكلموا عن ظهور العثمانيين بالجزائر ونظام الحكم الذي تسير به الإيالة ومختلف أجهزته الإدارية وعلاقاته مع البلدان الأخرى الأوروبية وغيرها أكثر مما تحدثوا عن الأهالي والمدن والوضع الاجتماعي والحياة الثقافية[1]. فلأن طبيعة الصراع الدائر بين أوروبا والدولة العثمانية ككل وليس إيالات شمال إفريقيا فقط، كانت تقتضي ذلك خاصة بعد أن صارت الجزائر الشغل الشاغل لكامل أوروبا.

وهكذا "أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والدبلوماسية وافتداء الأسرى وحب المغامرات لسكان الضفة الأخرى من البحر المتوسط فرصا عديدة للتعرف على المغرب الأوسط أو التأليف في تاريخه وتفصيل الكلام عن حادثة أو أخرى من الحوادث التي وقعت فيه"[2].

أولا - معطيات عن الحياة السياسية:

عندما نَطَّلِعُ على الجانب السياسي الذي تضمنته الرحلات الأوروبية نجد أنه قد جاء مستوفيا لجميع مناحي الحياة السياسية للجزائر في العهد العثماني حتى ولو كان مختصرا في بعض الأحيان.

وغالبا ما كان الرحّالون يفتتحون كتاباتهم بمختصر عن أوضاع الجزائر قبل مجيء العثمانيين يتعرضون فيه للجزائر منذ العصور القديمة وثورات هذا البلد الذي احتله الرومان سنة 46 قبل الميلاد، ثم الوندال سنة 427م،والذين دَمَّرُوا كُلِيًّا جميع المدن والأعمال التي بناها الرومان على مدى أربعة قرون، حتى استطاع الإمبراطور جوستنيان

---

[1] - لقد زار الرحالة الجزائري الورتلاني أغلب مناطق الجزائر من مدن وقرى كالجزائر وتلمسان وملیانة والبليدة ودلس وجبال زواوة والمسيلة وبسكرة وسيدي عقبة وسيدي خالد وتبسة وقسنطينة وعنابة وذلك خلال الربع الأخير من القرن 18 ومع ذلك لم يترك لنا الشيء الكثير عن مختلف جوانب الحياة فيها، لأنه كان يطمح بزيارته للعلماء والأولياء وأضرحة الأموات منهم، الوصول إلى مرتبتهم العلمية والروحية قبل كل شيء انظر : مختار بن الطاهر فيلالي، ***المرجع السابق***، ص. 37.. لقد كان تقصير الورتلاني واضحا لا يقارن مع تقصير الأوروبيين إذا ما سلمنا بأنهم تحدثوا عن جوانب همهم على حساب جوانب أخرى أهم .

[2] - مولاي بالحميسي،" المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني" ، ***المرجع السابق***، ص. 72..

(Justinien) طردهم من البلاد سنة 533 حيث دام الحكم اليوناني إلى سنة 633 حين تم الفتح العربي لكامل شمال إفريقيا[1]، ومنهم من حصر حديثه عن منشأ الجزائر القديمة في مدينة الجزائر فقط كهايدو و دوبارادي، وفي جميع الحالات كان الجميع يُشير إلى تعبير بربارياً[2] (Barbarie) الذي أطلق على الجزائر وكذلك باقي دول شمال إفريقيا وكذلك اسم الجزائر الذي حملته مدينة الجزائر أولا ثم عمم على كامل الإيالة.

فعن تعبير بربارية يقول هبنشترايت: هذه المملكة تسمى عادة بربارية (Barbarie) ليس لأنه يعيش بها أناس قساة ومتوحشون حسب مدلول اللفظة عندنا، حيث يجب الاعتراف بالاحترام الكبير الذي يبديه القسم الأعظم من السكان للأجانب وحبهم وارتباطهم بمواطنيهم. ولكن السبب يعود إلى كون لفظة البربر (Barbares) تعني سكان الصحراء أو لأن الرومان كانوا يسمون قديما كل من لا يفهمون كلامهم بالبربر[3].

أما عن اسم دولة الجزائر فيقول إميري مستشهدا بملاحظات كوكوفتسوف: يجب أن نوضح أن اسم الجزائر (Algérie) ليس اختراعا فرنسيا كما قيل كثيرا حتى يعتقد الناس أن هذا البلد لم يكن دولة بأتم معنى الكلمة قبل الغزو الفرنسي.فالروس يسمونه الجزائر (Algir) حيث يقول لنا كوكوفتسوف : لقد أخذت الدولة الجزائرية اسم عاصمتها الشهيرة منذ زمن بعيد بمآثر قراصنتها، ثم يحاول كذلك شرح عبارة الدول البربرية (Pays barbaresque) فيقول: إن الرومان يسمون كذلك جميع الشعوب المغلوبة من طرفهم كدلالة على احتقارهم لعاداتهم البدائية ولأن الأوروبيين قد اعتادوا على تقليد الرومان في كل شيء، فقد تبنوا كذلك أخطاءهم[4].

---

[1] - Laugier de Tassy, ***Op. cit***, pp .18-19

وقد عبر لوجيي دوتاسي عن الفتح الإسلامي بعبارات لا تمت للواقع بصلة حيث يقول : "جاء دور العرب المسلمين الذين عاثوا فسادا وسلبا ونهبا في كامل إفريقيا، وغزوا موريطانيا متذرعين بالدين" وموريطانيا القيصرية (Mauritanie Césarienne) هو الاسم القديم لمملكة الجزائر وقد تحدث دارندا كذلك عن الجزائر في القديم.

[2] - تماشيا مع السياق العام لكتابات الأوروبيين، غالبا ما أترك هذه العبارة على حالها ولا أستعيض عنها بمعناها وهو دول شمال إفريقيا التي تقع غرب مصر.

[3] - Mounir Fendri, ***Op. cit*** , p. 84

[4] - Marcel Emerit, ***Op. cit***, p 210

كما تكلموا عن كيفية دخول الأتراك إلى الجزائر وقدوم آل بربروس[1]، والوجود العثماني

---

[1] – إسحاق وعروج (أوروج) وخير الدين (خضر) وإلياس وأبوهم اسمه يعقوب من الجنود الذين تركهم السلطان محمد في جزيرة مدلي لما فتحها برسم حراستها، وقد تزوج بنتا من بنات النصارى الذميات بعدما أذن السلطان له ولجميع العسكر بذلك انظر : مجهول المؤلف، ***غزوات عروج وخير الدين***، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص.6 ومدلي (Mytilène) أو ليسبوس (Lesbos) جزيرة يونانية في بحر أيجه (Egée). ولا أدري من أين أتى الأستاذ المدني بنسب زوجة يعقوب التي قال عنها أنها سيدة أندلسية، وقد حرّف اسم خضر إلى خسرف، ثم حاول تصحيح اسم عروج، فقال ان نطق اسم عروج بفتح العين وتشديد الراء غلط سببه عدم التعمق في دراسة الوثائق ليس الا وأن الاسم الحقيقي هو عروج (بضم العين وضم الراء)،حيث دعاه أبوه بهذا الاسم تيمنا بحادثة الإسراء والمعراج، ولأن الترك لا ينطقون حرف العين، وبالتالي فهم يلفظونه أوروج، وقد استشهد المدني بأثرين قديمين لا يزالان موجودين إلى اليوم، أحدهما الرخامة المنقوشة التي كانت موضوعة على باب حصن شرشال (وهي الآن بمتحف شرشال) وقد نقش عليها "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله. هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي، في خلافة الأمير القائم بأمر الله، المجاهد في سبيل الله أوروج بن يعقوب بإذنه بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة أي سنة 1518، أما رخامة مسجد الشواش الذي هدمه الفرنسيون والذي كان على مقربة من ساحة الشهداء في الجزائر فهي تحمل اسم أوروج بن أبي يوسف يعقوب التركي ومن هذا نستخلص أن والد البطلين المنقذين كان تركيا صميما خلافا لما يدعيه كثير من مؤرخي الإفرنج. انظر: أحمد توفيق المدني، ***حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا***، المرجع السابق، ص ص. 156، 159-161.

لقد أصاب الأستاذ المدني حين أكدّ على الأصل التركي للوالد يعقوب استنادا إلى الآثار التاريخية التي لا تدع مجالا للشك، ولكنه أخطأ في تأويل اسم عروج لأن أوروج هو الاسم الأصلي لمؤسس دولة الجزائر ومعناه الصيام ويرجح أنه سمي به تيمنا بشهر الصيام رمضان ولا علاقة له بحادثة الإسراء والمعراج لأن كلمة عروج في اللغة العثمانية هي نفسها كما في العربية وتكتب عروج بحرف العين، وأوروج هي التي حرفت في العربية إلى عروج بفتح العين وضم الراء أحيانا وإلى عروج بفتح العين وتشديد الراء أحيانا أخرى وهي التسمية الغالبة في اللسان المحلي. وقد أخذ الكثير من المؤلفين عن الأستاذ المدني هذا الخطأ وعمموه في كتبهم انظر مثلا : على محمد الصلابي، ***الدولة العثمانية (عوامل النهوض و أسباب السقوط)***، دار التوزيع و النشر الإسلامية، القاهرة، 2001، ص.207 ..

بينما يكتب أوروج في كتب المشارقة ويعطونه معناه الصحيح أي الصيام انظر مثلا: أحمد فؤاد متولي، ***تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي***، إيتراك للنشر و التوزيع، القاهرة، 2002،ص .250. ومن الذين وقعوا في الخطأ نفسه مصحح كتاب الغزوات الذي قال عنه بأنه ربما يكون اسم تركي مشتق من مادة عرج أي أصابه شيء في رجله فمشى مشية غير متساوية فتارة يميل إلى اليمين وتارة إلى الشمال أو من

فأطالوا وأوجزوا. إلا أنهم جميعا أهملوا الطلائع الأولى للعثمانيين الذين سبقوا قدوم عروج وإخوتـــه و"الذين أتـــــوا إلى الجزائر باسم الدين ما بين 1492 و1497 ومن بينهم كمال رايس وبيري رايس[1] حيث كانت لهم مجموعة من الزوارق يغامرون بها لإنجاد

-عرج بمعنى صعد وارتقى. انظر : مجهول المؤلف، ***المصدر السابق***، ص.3. من التعليق والإيضاح الموجز لنور الدين عبد القادر الذي جاء في آخر الكتاب.

ولعل قائل يقول لما كل هذا التركيز على هذه المسألة وهل تستحق كل هذا العناء ؟

والإجابة أتركها لدوغرامون (De Grammont) الذي طرح احتمال أن يكون لقب بربروس مشتقا من بابا عروج وليس مجرد ترجمة لمعنى اللحية الحمراء في اللغات الأوروبية فيقول في افتتاحية مقاله : الكثير من الناس ربما يعتبرون أن طرح هذا السؤال ليس مهما كثيرا، وأنه من غير الجدوى تخصيص ثلاث أو أربع صفحات للإجابة عليه ؛ إننا لا نستطيع أن نكون من أصحاب هذا الرأي، ونرد على ذلك بأن عروج يعتبر مؤسس السيادة التركية في الجزائر، ومن المؤسف لتاريخ هذا البلد أن يستهل بخطأ. انظر:

H-D de Grammont, « le nom de Barberousse dérive-t-il de Baba-Aroudj », ***revue africaine***,n°29, Alger, 1885, p. 226.

وقد خلص دوغرامون في نهاية مقاله إلى رفض هذا الاحتمال استنادا إلى عدة معطيات يستطيع كل من يريد الاطلاع عليها الرجوع إلى المقال والاطلاع عليها. مع أنه يرجح أن يكون فعلا هو الاحتمال الصحيح خاصة إذا علمنا أن بابا أوروج وهي الكتابة الصحيحة للاسم كما رأينا من قبل تقرأ في اللغة العثمانية بابا أوروتش.

وهكذا كما بحث دوغرامون عن المعنى الصحيح للقب الذي ما زال الاختلاف إلى الآن حول ما إذا كان مختصا بعروج أم بخير الدين أم أنه يشمل كامل العائلة فيقال آل بربروس فإنه لا يجب علينا التمادي في إعطاء تفسيرات خاطئة حول اسم عروج بعدما تبين لنا خطؤها البين وأن لا نحاول التقليل من أهمية ذلك لتصحيح تاريخنا.

وقد حاولت الخوض كذلك في موضوع اللقب، فلم أجد أحدا من المؤرخين أو الكتاب الذين قرأت لهم، أرجعه إلى البلد الذي عرف واشتهر بسببه عروج وإخوته، فكما هو معلوم فقد كان الإغريق أو اليونانيون هم أول من أطلق لقب البربر (Barbares) على كل من لا ينتمي إلى حضارتهم تبعهم الرومان ثم تبعهم الرومان في ذلك، والذين ربما يكونون هم السبب في التسمية التي أطلقها الأوروبيون على دول شمال إفريقيا التي كانت مستعمرة من طرف الإمبراطورية الرومانية الشرقية قبل الفتح الإسلامي ونقصد بها بربارية (Barbarie) فيكون المنتسب إلى هذه الدول يدعى بربري (Barbare) وهي باليونانية بربروس (Barbaros) ومعناها الأجنبي (أي الأجنبي عن حضارة اليونان ثم عند الرومان كذلك الأجنبي عن حضارتهم) وبالتالي إذا قلنا مثلا خير الدين بربروس فمعناها خير الدين البربري أي الذي ينتسب إلى الدول البربرية أو بربارية (Barbarie) وليس خير الدين ذا اللحية الحمراء.

[1] – محي الدين بيري رايس (1470-1554)، الملقب بالأميرال بيري رايس، نشر في تركيا سنة 1520 كتاب البحرية المخصص للملاحين، وقد اكتشفت خرائطه المزودة بتعليقات على الهوامش والمرسومة علـــى-

المسلمين الفارين من الأندلس نحو شمال إفريقيا وقد وجدوا تعاونا من رجال الدين والرباطات والزوايا ومنهم محمد التواتي – له ضريح ومزار حاليا- الذي باركهم وجنّد لهم أناسا لمساعدتهم وهم يعتبرون الطلائع الأولى وكانوا يختبئون شتاء ببجاية[1]".

وقد انفرد دوتاسي بذكر قصة حب عروج[2] للأميرة ظفيرة أرملة سليم التومي الذي قتله خنقا بمنشفة داخل حمامه الذي اعتاد على دخوله والبقاء فيه منفردا بعض الوقت قبل صلاة الظهر ثم ادعى (عروج) أنه أغمي عليه فمات من جراء ذلك لعدم وجود من ينجده[3] ونَشَر الرسائل المتبادلة بين عروج ملك الجزائر والأميرة ظفيرة والتي

=فرو اليحمور –نوع من الأيل–من طرف خليل أدهم مدير المتاحف الوطنية يوم 9 نوفمبر 1929 بقصر توب كابي بإستانبول وفي ملاحظاته كشف الأميرال بيري مصدر هذه الخرائط. ففي أثناء معركة بحرية شنها ظابط تركي اسمه كمال (عمه كمال رايس) ضد الإسبان سنة 1501 وقع في أسره أحد الأشخاص الذين شاركوا في الرحلات التاريخية الثلاث لكريستوف كولومبس، وقد كان هذا الأسير الإسباني يمتلك كمية كبيرة من الخرائط العجيبة. عن الموقع الإلكتروني : www.artchives.samsara_fr.com ويذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن بيري رايس قد كتب عن تواجده بالجزائر وعلاقته بأهلها في كتاب البحرية الذي حققه روبيرمنتران، ***محاضرة النظم والمؤسسات في العهد العثماني***، المرجع السابق.

وفي كتاب البحرية يتذكر بيري رايس عمه كمال الذي أبحر معه منذ كان صبيا فتعلم منه الكثير، فيقول موجها كلامه لأحد أصدقائه : أيها الصديق أريد منك أن لا تنساني بدعائك وأن لا تنسى كذلك معلمنا كما ل رئيس رحمة الله عليه فلقد كانت له معرفة جيدة بالبحار ويعرف الملاحة جيدا ولا أحد يستطيع أن يوقفه، لقد طفنا بحر الروم معا وشاهدنا جميع مدنه الكبرى وذهبنا إلى أراضي الفرنجة وهزمنا الكفار ... إلخ.

عن الموقع الإلكتروني : www.saudi aramcoworld.com (الموقع باللغة الإنجليزية).

وقد جاء في الغزوات أن عروج التقى مع بيري رايس في تونس وأهدى له بعض غنائمه وأرسل هو وأخوه هدية عظيمة إلى السلطان الأعظم سليم بن محمد، وكذلك هدايا أخرى لكل وزرائه صحبة محي الدين رئيس، فاستحسن السلطان وخاصته هذه الهدية وبالغوا في الثناء على خير الدين وأخيه ثم وجه إليهما السلطان صحبة محي الدين رئيس بجفنين بمجاذيفهما وشحنهما برجال البحر العارفين بأحوال سفره مكافأة لهما على هديتهما. فلما وصل إلى تونس وجد خير الدين خارجا للغزو فخرج معه محي الدين رئيس وكذلك قرط علي رئيس ومصلح الدين رئيس اللذان جاءا خصيصا لزيارة خير الدين لأنه طار خبر جهاده في بلاد الإسلام انظر. مجهول المؤلف، ***المصدر السابق***، ص ص. 24،26.

[1] – أبو القاسم سعد الله، ***محاضرة النظم والمؤسسات في العهد العثماني***، المرجع السابق.

[2] – يكتبه دوتاسي أروش (Aruch) وهي أقرب إلى اللفظ الصحيح من عروج.

[3] – من الذين ادعوا مقتل سليم التومي شنقا بيد عروج، الأب هايدو انظر:

Diego de Haëodo, ***Topographie et histoire générale d'Alger***, traduction de Dr=

حاول عروج من خلالها الظفر بقلب الأميرة ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل حيث انتحرت ظفيرة في الأخير بِالسُمِّ، فدفنها مع جميع النسوة اللواتي يخدمنها بعدما خنقهن انتقاما منهن وأشاع أنهن هربن مع الأميرة متنكرات دون علمه[1].

ويُبَرِّرُ دوتاسي نقله لهذه القصة[2] بقوله : لقد أدرجت في هذا التأليف بعض المغامرات أو الأحدوثات التي لها علاقة بالموضوعات المعالجة منها ما كنت شاهدا عليها وأخرى حديثة العهد حيث أن حقيقتها مؤكدة تماما من طرف سكان البلاد والتي لا نستطيع أن نرتاب في صحتها إلا إذا بالغنا في الشك. فقصة حب عروج لظفيرة لا يعرفها إلا القليل داخل البلاد نفسها والتي يحتمل أن تكون مجرد رواية ولا أريد أن أكون ضامنا لحقيقتها لقد وضعتها كما ترجمت لي من مخطوطة قضيمية[3] يملكها سيدي أحمد بن حرام وهو مرابط من إقليم قسنطينة يدّعي أنه ينحدر من عائلة الأمير العربي سليم التومي زوج ظفيرة[4].

أما فيما يَخُصُّ الحكومة أو النظام السياسي القائم آنذاك بإيالة الجزائر فقد تَعرَّض غالبية الرحّالين له خاصة دوتاسي وبيسونال ودو بارادي وبانانتي حيث تكلموا عن تشكيلة الحكومة المؤلفة من الباشا أو الداي والديوان وعن صلاحيات كل منهما وكذلك مجموعة كبار الموظفين الذين يعتبرون بمثابة الوزراء وأهمهم الخزندار وأغا الإنكشارية ونظام القضاء والسلطة التشريعية والشرطة ومختلف القوات العسكرية (الجيش الإنكشاري أو الميليشيا) والبحرية (طائفة الرياس) وباقي الضباط الكبار كما تكلموا عن البايلكات الثلاث ودار السلطان والبايات أو نواب الباشا على مقاطعات الشرق والوسط والغرب.

كما كانت القرصنة[5] موضوعهم المفضل حيث تناولوا في كتاباتهم عادات القراصنة وعددهم وعدد السفن التي يملكونها ومدى خطورتهم على أوروبا والحروب البحرية وما يتمخض عنها من اتفاقيات ومعاهدات أو قَطعٍ للعلاقات.

=Monnereau et A. Berbrugger, Bouchene, Paris, 1998, p. 35.

[1] - Laugier de Tassy, ***Histoire du royaume d'Alger***, *Loysel, Paris, 1992*, pp. 22-31.

[2] – قال عنها جون وولف بأنها حكاية أسطورية وأن " الرسائل الحقيقية" التي قدمها دوتاسي لقرائه تعتبر مجرد هذيان فرنسي خلال القرن الثامن عشر، انظر: جون وولف، *المرجع السابق*، ص.462.

[3] – مخطوطة مكتوبة على رق دقيق من جلد العجل.

[4]- Laugier de Tassy , ***op.cit***, p.9

5 – هي القرصنة أو لصوصية البحر عند الرحالين والكتاب الأوروبيين وهي الغزو عند ابن خلدون وصاحب كتاب الغزوات وهي الجهاد في سبيل الله عند الكتاب المعاصرين كالمدني والعروي والصلابي لقد كانت=

وكان بفايفر من أحسن الذين كتبوا عن الظروف التي سبقت احتلال الجزائر الذي أنهى الوجود العثماني بالجزائر حيث روى لنا الأحداث والوقائع التي عايش بعضها بنفسه وكان شاهدا عليها وسمع البعض الآخر من غيره، ابتداء من توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا إلى درجة القطيعة ، وحادثة المروحة الشهيرة[1] والمناوشات التي حدثت بين

=القرصنة عملية يقوم بها الجانب المسيحي الأوروبي والجانب المسلم على السواء وكل واحد منهما ينظر إليها بمنظاره الخاص فإذا كانت الجزائر هي البلد الوحيد الذي وقف في وجه أطماع الإمبراطورية الإسبانية القوية المدعمة بالسلطة الروحية البابوية والقوة الصليبية (فرسان القديس يوحنا) وأنجدت الأندلسيين الفارين من بطش محاكم التفتيش فهي بذلك تؤدي دورا جهاديا لا ينكره عاقل. أما الاعتداء على سفن الأوروبيين الآمنين غير المحاربين من اجل الحصول على أموالهم واستعباد رجالهم ونسائهم فلا صلة له بالدين ولا بالجهاد خاصة وأن القسم الأعظم من القراصنة الجزائريين هم من الأوروبيين المهتدين بشهادة الأوروبيين أنفسهم انظر: Diego de Haedo,***Op.cit,*** p.88. وغالبا ما كنت أترك هذه الكلمة كما وردت على ألسنة أصحابها إما قرصنة وإما غزوا وجهادا.

وقد قرأت إجابة للشيخ البوطي عن سؤال يتعلق بحكم الإسلام في ما يسمى بالجهاد البحري الذي كانت تنظمه بعض الدول الإسلامية السابقة والذي كان هدفه الاعتراض لمراكب الأوروبيين وسلب أموالهم وحاولت الاستفسار عن كثير مما ورد في الإجابة عبر مراسلة الشيخ البوطي لكنني لم أتلق الرد حتى الآن وهذا يعود حسب علمي لانشغالات الشيخ الكثيرة أو لمشكل تقني إعترض وصول سؤالي لعدم تمكني من التعامل الجيد مع الأنترنيت. و فحوى الجواب هو الآتي: أصحاب المراكب ليسوا حربيين ومن ثم لا يجوز التعرض لهم بأي سوء فضلا عن استلاب أموالهم... وسلوك مثل هذه السبل يتم بتخطيط من أعداء الإسلام والمتربصين به (كما تدل على ذلك الوثائق) وذلك أملا في أن تجهض هذه التصرفات العدوانية اللاأخلاقية التطلع المتزايد لدى الشعوب الأوروبية إلى معرفة الإسلام، والثقة التي تتزايد لديهم يوما بعد يوم بأنه المصير الذي لابديل عنه والذي يعبر عن الحقيقة الكونية والواجبات الإنسانية، انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، ***مشورات اجتماعية***، دار الفكر، دمشق، 2001، ص.190.

[1] – لم تكن حادثة المروحة سوى ذريعة واهية حاولت فرنسا أن تبرر بها احتلال الجزائر لأن الغزو كان استمرارا للحروب الصليبية. وكان هدفه أيضا نهب كنوز إيالة الجزائر وهذا بشهادة الفرنسيين أنفسهم حتى يستطيع شارل العاشر (Charles X) تأمين الأموال السرية لرشوة أعضاء الهيئة الانتخابية وتغيير آرائهم.

وقد استفاد من أموال الخزينة الضخمة أكثر من 500 مليون من فرنكات فرنسا في ذلك العهد. أي ما يعادل – 4 مليارات أورو- كل من لويس فيليب(Louis –Philipe) ودوقة بيري (Berry)، بالإضافة إلى العسكريين وأصحاب المصارف والصناعيين كآل ساليير (Les Seilliere) وآل شنايدر (Les Schneider) وتطوير صناعة الحديد الفرنسية بدين كثير لذهب الجزائر .انظر:

Pierre Pean , ***main basse sur Alger (enquête sur un pillage*** **juillet 1830**), Chihab, Alger,2005.

الأسطولين الجزائري والفرنسي والاستعدادات للحرب، وصولا إلى المعركة الفاصلة التي مكنت فرنسا من الاستيلاء على الجزائر ورحيل الداي حسين منهزما إلى نابولي مع أفراد حاشيته[1].

ثانيا – لمحات عن الواقع الاجتماعي:

خصص الرحالة الأوروربيون جزءاً كبيرا من رحلاتهم للحالة الاجتماعية السائدة آنذاك في مناطق الجزائر المختلفة فتحدثوا عن تركيبة المجتمع الجزائري وتنوع العناصر المكونة له من أهالي – عرب وبربر- وأندلسيين وأتراك وكراغلة ويهود ومسيحيين ووصفوا سكان المدن خاصة مدينة الجزائر وكذلك العرب والبدو وسكان القبائل وتكلموا عن طباعهم وعاداتهم وعباداتهم ومعاملاتهم خاصة مع المرأة التي يبالغون في الغيرة عليها وينتقصون من حريتها –حسب زعمهم- إلا أنهم ركزوا حديثهم وملاحظاتهم حول الأسرى المسيحيين ووضعيتهم داخل السجون والكيفية التي كانوا يعاملون بها.

خاصة الآباء الذين كانوا ينتمون إلى المؤسسات الدينية التي انصرفت إلى مهمة افتداء الأسرى حيث بالغوا في وصف مختلف أنواع العذاب الذي يتعرض له النصارى في سجون الجزائر المكتظة، فالأب دان بعد ما وصف المآسي التي يعيشها الأسرى يوميا، راح يستعرض قائمة بأنواع التعذيب تصل إلى ثلاثة وعشرين صنفا لا يستطيع أصحاب الحس المرهف متابعتها حتى النهاية لما اشتملته من عقاب منكر وعذاب شديد لا نظير له إلا في جهنم.

ولكن التهويل والمبالغة في هذا الموضوع لم ينطل على أحد من الكتاب المنصفين حيث رد عليهم الأوروبيون أنفسهم كدوتاسي وبيسونال[2] وبينوا الهدف الذي يَصبُون إليه بمبالغاتهم والمتمثل في الحصول على تبرعات أكثر بإثارة عواطف الناس لأن " المبالغة والقسوة والرعب هي الأشياء الوحيدة التي تستطيع أن تلين القلوب وكان نشر هذه التصانيف يسمح بأكبر إذاعة لهذه المعلومات الرامية إلى تعذية الحقد على المسلمين. لا

---

[1] – انظر: سيمون بفايفر، *مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر* ، المصدر السابق، ص ص. (33-42)، (57-110).

[2] – Denise Brahimi, ***OP. cit***, pp.122,131.

لإرضاء فضول الأفكار المتعطشة لمعارف أوسع ويقع التأثر من المصائب التي يصبها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على المسلمين."[1]

إذا فتدمير الجزائر واحتلالها هو الهدف الخفي الذي يتماشى مع مخططاتهم التي وجدوا لأجلها والفداء مجرد تحصيل حاصل، وإذا كانوا فعلا يتحركون وفق مشاعرهم الإنسانية النبيلة التي تأبى عليهم السكوت عن هكذا أوضاع، فلماذا سكتوا عن آلام المسلمين الذين يعانون أمامهم في سجون ليفورن ومرسيليا وبرشلونة ؟

إن كل من يطالع يوميات دارندا " يذهل لنوعية العلاقات الإنسانية التي عقدها هذا الأخير مع مختلف أسياده خاصة مع سيده مصطفى الذي كان مثالا للرفقة الحسنة التي جمعت بينهما على الوجه الأكمل"[2].

ولقد كان هبنشترايت شاهدا على المعاملة التي كان يتلقاها الأسرى المسيحيون في الجزائر، حيث وجدها اكثر إنسانية وأحسن بكثير من حالة الأسرى المسلمين الذين يعملون على قوارب التجذيف والذين شاهدهم بنفسه وهم يكابدون تحت الثقل المضني لأغلالهم[3].

أما كوكوتسوف فيقول: إن كل الأسرى لديهم ما يحتاجونه من لباس وطعام وخلال فترة عبوديتهم يعاملهم الجزائريون بإنسانية أكثر بكثير من معاملة الأوروبيين لأسراهم والأتراك يظهرون ثقة كبيرة بالأسرى المسيحيين لا ينالها الأهالي أنفسهم، فيكلفونهم بأعمال سهلة ويسمحون لهم بأخذ قسط من الراحة بعد إتمامها، ويمنحونهم أوقات فراغ حتى يستطيعوا العمل كذلك لصالحهم الشخصي[4].

ويصف دي فونتين الأسرى الذين كان باي معسكر يمتلكهم وعددهم خمسون وكلهم هربوا من وهران ويوجد من بينهم العديد من الفرنسيين، فيقول: إنهم كانوا يعيشون حياة مريحة لأن الباي يحب المسيحيين ويعاملهم بلطف وطيبة ويوزع عليهم الأرزاق والأموال لإشباع حاجاتهم[5].ويصدق ما ذهب إليه هؤلاء الرحالة وصول كل من

---

[1] - مولاي بالحميسي، "المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني"، *المرجع السابق*، ص ص.74- 75.

[2] - Denise Brahimi, ***OP.cit***, p .44.

[3] - Mounir Fendri, ***Op.cit***, p.84.

[4] - Marcel Emerit , ***Op.cit***, pp.212-213.

[5] - Louiche René Desfontaines, ***Fragmens d'un Voyage dans les régences de=***

هارك أولوفس أسير باي قسنطينة وتيدنا[1] (Thedenat) أسير باي معسكر إلى رتبة الخازندار.

وللرد على اتهامات الأوروبيين للجزائريين بأن أخلاقهم سيئة ومعاملتهم للأجانب أسوأ لا نجد أبلغ " مما سجلته يراعة سيدة ارستقراطية انجليزية وهي صوفيا برنارد التي زارت الجزائر في سنة 1811 فبعدما أثنت على حسن سلوك الجزائريين وأدبهم في المعاملة قالت: إنهم يمتنعون عن تناول المشروبات الروحية ليت جميع الأمم تحذو حذوهم ! وأما لباسهم فجميل جدا وأما سلوكهم مع الأجانب فهو يتسم بطيبة القلب وروح المجاملة إنهم كرماء الضيافة وباختصار فإن إقامتي في الجزائر كانت قصيرة ولكنها كانت مليئة بالمتعة وأنا أعتقد أنه من المستحيل أن يجد المرء في أي مكان آخر في العالم لياقة وأدبا ورعاية مما يجده في الجزائر."[2]

ثالثا - نظرات على الوضع الاقتصادي

نتيجة أعمال القرصنة التي كانت تمارسها إيالة الجزائر ضد السفن المسيحية خاصة التجارية منها، وبفضل الغنائم التي كانت تَرِدُ عليها من شتى البقاع والأصقاع غدت مدينة الجزائر من أغنى مدن العالم حتى إن "معظم الدراسات التي ظهرت عن القرنين السابع عشر والثامن عشر تكاد تتركز حول القرصنة واسترقاق الأسرى المسيحيين وفديتهم، الشيء الذي جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى الاعتقاد أن القرصنة تشكل الصناعة الوطنية والمورد الرئيسي للبلاد، وهو رأي خاطئ"[3].

وحتى الدراسات التاريخية التي تناولت تجارة واقتصاد بلاد الجزائر مع الدول الأوروبية قليلة مما يجعل هذا الموضوع يكتنفه الكثير من الغموض ولكن كل من يتسنى له الاطلاع على وثائق ودفاتر حكام الجزائر المحررة باللغتين العربية والتركية التي استولت

=*Tunis et d'Alger,Tome second,librairie de gide, Paris, 1838,* pp.184-185.

[1] - انظر: احميدة عميراوي، ***الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)***، دار الهدى، عين مليلة، 2003.

[2] - إسماعيل العربي، "قصف الأسطول البريطاني للجزائر وأثره في الأدب الإنجليزي"، ***في مجلة الثقافة***، العدد42، الجزائر، 1978، ص ص. 61-62.

[3] - عبد الجليل التميمي، الدفاتر التركية والعربية في الجزائر، ***مجلة الأصالة***، ع. 15/14، الجزائر، 1974، ص ص. 37-38.

عليها الحكومة الفرنسية يوم أن احتلت الجزائر. يستطيع أن يصل إلى نتيجة مفادها بطلان هذا الرأي، لأن الدولة الجزائرية عرفت حركة تجارية نشيطة مع موانئ الشرق مثل إزمير وسالونيك والإسكندرية ومع موانئ شمال إفريقيا كطرابلس الغرب وتونس والمغرب الأقصى وحتى مع موانئ الدول الأوروبية خاصة مرسيليا حيث كان للداي وكلاء تجاريون في عدد من هذه الدول[1].

ويؤيد هذا الطرح هايدو الذي وضع التجار في المرتبة الخامسة في سلم ترتيب سكان مدينة الجزائر، فهم كثيرون ويتشكلون أساسا من الأتراك والمهتدين وأبنائهم وبعض اليهود الذين اعتنقوا الإسلام طواعية والسلع التي يتاجرون فيها هي التي توجد في بربارية وتشمل القمح والشعير والأرز والأبقار والأغنام والجمال والصوف والزيت والزبدة والعسل والزبيب والتين والتمر والحرير أما الجلود وشمع العسل فتحتاج المتاجرة فيهما إلى ترخيص من الباشا حتى يستطيع التجار شراءها من الأهالي وإعادة بيعها للمسيحيين، وكثير هم الذين يشترون غنائم القراصنة وخاصة الأسرى المسيحيين من جميع الأعمار والمراتب ويجنون فوائد كبيرة جدا من هذا النوع من التجارة غير المشروعة[2].

تم عدّد هايدو بضائع كثيرة جدا ومتنوعة ترد ميناء الجزائر من مختلف موانئ أوروبا تحملها سفن إسبانيا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا، بالإضافة إلى تلك التي ترد من موانئ القسطنطينية والإسكندرية وطرابلس وجربة وتونس وطبرقة وحتى من داخل الإيالة من باستيون فرنسا وبونة وقسنطينة والقل وشرشال ووهران وتلمسان وفي المقابل كانت الجزائر تعطي للتجار الأوروبيين الأصواف والشمع والجلود والتمور والأصباغ الطبيعية وتبيعهم كذلك غنائم القرصنة كالأمتعة العتيقة والسيوف وأدوات تصفيف الشعر دون أن ننسى تجارة بيع الأسرى المربحة.

وإلى فاس عن طريق تطوان يرسل تجار الجزائر بواسطة سفن التجديف التي تبحر في كل الفصول السيوف والخناجر وحرير الهند والقسطنطينية كما يرسلون إلى باقي إيالات بربارية بضائع عديدة من بينها الأغطية وأصباغ إسبانيا. أما إلى القسطنطينية فيشحنون الأحجار الكريمة واللؤلؤ والمرجان ومعلبات فالنسيا وخصوصا ريالات إسبانيا

---

[1] - عبد الجليل التميمي، " الدفاتر التركية و العربية في الجزائر "، *المرجع السابق*، ص ص. 37-38.

[2] - Diego de Haëdo, ***Op.cit***, p. 103.

التي يحصلون منها على أرباح كبيرة، كما يرسلون كذلك، ولكن كهدايا عدد معتبر من الأسرى المسيحيين الشباب[1].

ولقد كان هؤلاء التجار يقومون بعمليات تجارية عالمية، فالحج إلى مكة والسفر إلى تونس والمغرب والشرق الأدنى، وأحيانا إلى موانئ دول البحر المتوسط الأوروبية كان فرصة لتجارة مربحة، إلا أنهم لم يبلغوا المكانة التي وصل إليها كل من بوضربة وحمدان خوجة، هذان الرجلان المعروفان بدورهما السياسي سنة 1830، واللذان تتمثل فيهما المميزات الحقيقية للتاجر العالمي، فلقد كانا يتمتعان بمستوى تعليمي راق، ويعرفان بعض اللغات الأجنبية وكذلك الفكر الجديد لأوروبا الرأسمالية، وكل منهما سلّيل عائلة شغلت مناصب إدارية عليا، ويتردد على الباشوات والبايات كصديق حميم أو ناصح أمين أو شريك في أعمال تجارية كبرى[2].

وهكذا يتضح لنا وجود حركة تجارية واسعة داخل الإيالة ومبادلات تجارية دولية كبيرة بين المؤسسات والأفراد، مما ينفي زعم القائلين باعتماد إيالة الجزائر على مداخيل القرصنة فقط كما يشير إلى ذلك كوكوفتسوف "إن بيع الأسرى المسيحيين يشكل الدخل الرئيسي للحكومة الجزائرية. فمن كل عملية افتداء لأي أسير، تقتطع الحكومة 10 %، علاوة على ذلك، يسدد مالكوهم ضريبة محددة كحقوق جمركية حين يغادر الأسير نحو أوروبا"[3]. وقد لاحظ شو أن صادرات بربارية تقتصر على القمح وأنه قبل احتلال وهران من قبل الإسبان كان التجار الإنجليز يحملون من مختلف موانئ الجزائر وتونس ما بين سبعة وثمانية آلاف طنة[4] في السنة. وأن باقي المنتجات تتمثل في الزيت والجلود والشمع والخضر، ولكن بكميات قليلة، وأن الزيت يستهلك بكثرة في الجزائر ولذلك من النادر أن يسمح للمسيحيين بتصديره[5].

وقد منحت التجارة الرئيسية لبربارية حصرا للشركة الموجودة بمرسيليا تحت اسم الجمعية الملكية الإفريقية[6]. وكان صيد المرجان الهدف من تأسيسها، ثم توجهت إلى تجارة

---

[1] -Diego de Haëdo, *Op.cit*, p. 104 – 105.

[2] - Lemnouar Merouche, *Op.cit*, p. 242.

[3] - Marcel Emerit, *Op.cit*, p. 212.

[4] - طنة (Tonneau) مقياس دولي قديم لسعة السفن يساوي 2.83 متر مكعب.

[5] – Thomas Shaw, *Op.cit*, pp. 119 120.

[6] – تأسست هذه الشركة في عهد لويس الرابع عشر (Louis XIV) قال عنها كاتكارت أنها تحتكر أهم فروع-

الحبوب والصوف والجلود والشمع. ويوجد مكتبها الرئيسي في باستيون فرنسا في أقصى شرق مملكة الجزائر حيث كانت تقتسم تجارتها مع الشركة الإنجليزية التي أنشأت بالقالة ولما أفلست بقيت التجارة محتكرة من قبل الفرنسيين[1].

ولقد كانت جميع المواد الغذائية الضرورية لمتطلبات الحياة تباع بأسعار رخيصة جدا، مما عاد بالنفع على السكان الذين يستهلكون الخبز بكثرة كعادة جميع الشرقيين، وتشكل صناعة الزرابي أحد فروع التجارة والصناعة بهذا البلد، وبالرغم من أنها ليست بجودة زرابي تركيا إلا أنها أنعم وأرخص لذلك تستعمل للنوم وتوجد كذلك بعض الحرف مختصة في صناعة الأنسجة بجميع أنواعها، كالأقمشة الحريرية والقطيفة وحتى النسيج الخشن غير المتقن الذي يصنع في كامل البلاد[2].

وتوجد كذلك صناعة جلدية، تتمثل في دباغة جلد الماعز وصباغته بألوان مختلفة كالأصفر والأسود والبنفسجي والأحمر، توجه للاستهلاك داخل البلاد فقط، أما أحذية النساء وصنف من الحافظات والحقائب والتي تصنع من الجلد الملون والمطرز بالذهب والفضة فتوجه منها كمية كبيرة إلى دول المشرق[3].

ويستغرب الباحث في شؤون إيالة الجزائر في ذلك العهد، عدم سعي القائمين على أمورها إلى إقامة صناعة حربية ثقيلة، توفر لها الحماية ضد أخطار الدول الأوروبية الطامحة دوما لاحتلالها، وتساعدها في عمليات القرصنة المستمرة ضد السفن المسيحية، خاصة وأن الأموال متوفرة واليد العاملة يمكن توفيرها بالاستعانة بالأهالي وكذلك الأسرى الأوروبيين الذين لهم الكثير من الخبرة في هذا المجال. ولماذا الاعتماد فقط على اللوازم الحربية والبحرية التي تدفعها الدول الأوروبية على شكل ضرائب مترتبة عليها وفق

-التجارة وأعظمها قيمة في جميع بلدان البربر، وللحفاظ على تجارتها بعيدا عن منافسة الدول التجارية الأوروبية الأخرى، كانت تقدم المشورة والمساعدة دائما وباستمرار إلى الجزائر فتسببت في فشل العمليات التي قام بها الأسطول الإسباني ضد الجزائر، انظر : جيمس ليندر كاثكارت، *المصدر السابق*، ص. 62.

1 - L'Abbé Poiret, ***Voyage en barbarie***, première partie, de la rochelle, Paris, 1789, pp. 17-19.

2 - Thomas Shaw, ***op.cit***, pp .119-121.

3 - Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIII ème siècle***, Sindbad, Paris, 1983, p. 122.

وقد أسهب فونتير في وصف الحياة الاقتصادية، فتكلم عن الحرف والمنتجات الطبيعية والتجارة الخارجية وتجارة الأغذية والأسعار والجمارك وما تدفعه الدول للجزائر والمداخيل القارة، مما لا يتسع المجال لذكره مفصلا ولمن أراد ذلك فليرجع إلى الصفحات : (120-139)،(237-251)،(258-259).

المعاهدات التي كانت تقام بينها وبين الجزائر حتى تسلم من خطر قراصنتها والتي تتمثل في المدافع والقذائف والبارود والحبال وأعمدة الصواري وغيرها من مستلزمات السفن ماعدا، في حالات نادرة كما حدث سنة 1683 لما حاول بابا حسن صهر الداي حجّي محمد الحصول على كمية كبيرة من الذخيرة والمدافع والصواري، وكذلك إقناع سبّاك خبير في المدافع ليستقر في الجزائر ولما فشل وكيله في هولندا في تحقيق ذلك طوال المدة التي أقامها بمدينة لاهاي، استدعاه بابا حسن وفصله من عمله[1]. ولم يقتصر النشاط الاقتصادي على التجارة في المحاصيل والمنتجات التي توفرها الإيالة وكذلك تبادل السلع والصناعات والحرف، بل تعداه إلى جوانب أخرى تعكس الحياة الاقتصادية مثل ما تدفعه الدول الأوروبية وتونس على شكل هدايا وإتاوات وضرائب بمختلف أنواعها، وغنائم البحر وما توفره عمليات افتداء الأسرى والجمارك والأسعار والعملة والأجور وغيرها والتي تناولها عدد غير قليل من الرحالة في كتاباتهم[2].

رابعا – آراء حول الحياة الثقافية :

لم يتحدث الرحالة الأوروبيون كثيرا عن الحياة الثقافية في الجزائر، في حين أسهبوا في المجالات الأخرى. فهل يعود ذلك إلى إهمال منهم لهذا الجانب الهام والضروري لحياة ونهضة أي مجتمع ؟ أم إن الثقافة كانت مغيبة حقا بحيث لم يكونوا مبالغين حين أنكروا وجود أي مظهر من مظاهر العلم والتعلم في كامل إيالة الجزائر ما عدا حفظ وتعلم[3] القرآن الكريم والذي يكون في الغالب داخل المساجد.

---

1 - Gérard Van Krieken, ***Op.cit***, p. 75.

[2] – بالإضافة إلى شو ودوباردي انظر:

Laugier de Tassy, ***Op.cit***, pp. (149-152) (162-170),(173-178) و Filippo Pananti, ***Op.cit*** pp. (357-365).

[3]– لقد أعجب بواري بطريقة تدريس القرآن الكريم حين شاهد مجموعة من الأطفال – ذكورا وإناثا– وهم يتلون القرآن حلف شيخهم القصير جالسة عندما لم ير غير ملامحهم علمات الضجر والنفور من الدراسة المألوفة كثيرا بمدارس أوروبا ثم علق قائلا : إن طفولة الإنسان في هذه البلاد لم تترك لمعلمين قساة مستبدين عديمي الشفقة والذين يذبلون أزهار أجمل وأحسن فترة من حياتنا . انظر: L'Abbé Poiret, ***Op.cit***, p. 63

فمولاي باحميسي أخطأ حتى المؤرخين والباحثين والرحالين الغربيين تقصيرهم البين حين يتكلمون عن الثقافة مما أودى بهم إلى الوقوع في الأخطاء والأغلاط فهم "إذا وقفوا لحظات عند الحياة الثقافية أشاروا أو أجازوا (ربما الصحيح أوجزوا) فأخطئوا.

فهذا شيلر (Shaler)[1] ينفي وجود العلم والتعليم في الجزائر ويدعي أن السكان يحتقرون العلوم ويكتفون بتعلم القرآن"[2].

بينما يؤيد أبو القاسم سعد الله، صاحب كتاب تاريخ الجزائر الثقافي وهو المختص في هذا الميدان، آراء الأوروبيين الذين قالوا باقتصار التعليم في الجزائر على تعلم القرآن، والقراءة والكتابة ومبادئ الحساب فيقول : "التعليم نوع واحد وهو ذو طابع ديني وقد كان شائعا في الجزائر وباقي العالم الإسلامي لإيمان المسلمين على العموم بخدمة الدين وعلومه وهو الشائع والقليل القليل من توجهوا إلى علم الطب وصناعة الأسلحة ... إلخ"[3].

فإذا عرجنا على أقوال الرحالة الأوروبيين نجدهم يكادون يتفقون على رأي واحد حول نوعية التعليم الذي كان سائدا آنذاك فهم إما يمرون على هذا الموضوع مرور الكرام فلا يلقون له بالا لاعتقادهم بعدم وجود حياة ثقافية تستحق الذكر كما فعل دو نيكولاي (Nicolas de Nicolay) الذي اكتفى حين وصف معالم مدينة الجزائر بذكر مسجد واحد وصفه بأنه المسجد الأعظم والرئيس بمدينة الجزائر والذي يمتاز بزخارفه الفريدة وأسلوب بناءه الرائع، دون أن يتحدث عن دوره الثقافي[4] وكذلك دوبارادي (Venture de Paradis) الذي أشار إلى عدد المساجد بمدينة الجزائر الذي يبلغ الإثني عشر بالإضافة إلى عدد كبير من المساجد الصغيرة وختم حديثه عن المساجد والمدارس بقوله: إنه توجد في الجزائر ثلاث مدارس جامعة حيث يدرس مذهب مالك بن

---

[1] – وليام شالر (وليس شيلر)، قنصل أمريكا في الجزائر، كتب مذكراته عن فترة إقامته بالجزائر من 1816 إلى 1824، وقد صدرت في باريس سنة 1830، بعد أن ترجمها بلانشي (M.X.Blanchi) إلى الفرنسية، ثم عربها إسماعيل العربي وصدرت بالجزائر سنة 1982، عن منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع وقد دعا المؤلف صراحة إلى الإطاحة بالنظام العثماني في الجزائر في مذكراته، ووضع خطة للأوروبيين تبين لهم الكيفية التي يتم بها ذلك، انظر : مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر، ط.2، ص ص.185 -192.

[2] – مولاي باحميسي ، *الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني*، المرجع السابق، ص.31.

[3] – أبو القاسم سعد الله ، الحياة التعليمية والثقافية في الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق.

[4] - Mahfoud Kaddache, ***l'Algérie durant la période Ottomane***, O.P.U, Alger, 1991, p.59.

أنس دون أن يدخل في أي تفصيلات عن طرق التدريس ونوعية الدراسة. وهل اقتصرت فعلا على دراسة الفقه، على مذهب مالك، أم تعدته إلى مجالات أرحب من الفنون والعلوم؟[1].

ويؤيد هذا ما جاء في رحلة الورثلاني (الحسين بن محمد السعيد) التي كانت تقريبا في الفترة نفسها التي أقام فيها دوبارادي بالجزائر[2] حيث لاحظ قلة العلم وأربابه في الجزائر لإهمال الحكومة التركية لذلك فعن مسجد بسكرة الكبير يقول : "غير أنه كالعدم في زماننا لا ندراس العلم وأهله، إذ لا تجد طالبا يقرأ القرآن أو يتعلم مسألة من العلم فيه..."واهم الأتراك بأنهم استولوا على أملاك الأوقاف والأحباس بما فيها المدارس وأباحوها لأنفسهم واستخدموها كمساكن لهم.

بينما أصبح العلم يدرّس في قسنطينة في بعض الأوقات دون غيرها، لأن ولاّتها لم يهتموا ببناء المدارس ولا بكثرة الأوقاف والأحباس وقد لاحظ كذلك أن العلوم التي كانت تدرس بالجزائر عموما لا تتعدى الفقه وأصول الكلام. كما أشار إلى أن عدم توفر أماكن لإقامة طلبة العلم وكذلك معونات تخصص للإنفاق عليهم سيؤدي لا محالة لاختفاء العلم والعلماء وهو من الأسباب التي اضطر لأجلها الكثير من الطلبة والعلماء إلى الهجرة نحو تونس ومصر[3].

وإما يحاولون — وهم الفريق الثاني من الرحالين- تسليط الضوء على الحالة الثقافية السائدة في الجزائر بالرغم من مستواها المتدني مقارنة مع جارتها تونس.

وقد أجمعوا كلّهم، وهم على التوالي الأب دان ودوتاسي وشو وبانانتي[4] على أن التعليم يقتصر في الغالب على تعلم القراءة والكتابة وقواعد الحساب العامة وحفظ القرآن

---

[1] - Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIIIè siècle***, Op. cit, pp. 254-255.

[2] – كانت رحلته الأخيرة إلى المشرق عام 1765 ولا شك أن القسم الكبير الذي خصصه لجولاته الداخلية يدل على أنه دونه قبل سفره، وقد بدأ في كتابة الرحلة في صورتها النهائية سنة 1767، وهي الرحلة المسماة ***نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار الشهيرة بالرحلة الورتلانية***. أما دوبارداي فقد أقام بالجزائر من سنة 1788 إلى 1790.

[3] – مختار بن الطاهر فيلالي، *المرجع السابق*، ص ص. 161، 165، 166، 169، 171.

[4] – انظر : الفصل الرابع من هذا البحث، الفقرات التي تناولت الحياة الثقافية عند كل من دان ودوتاسي وشو.

الكريم[1]، ويتم عادة في المساجد حيث يتولى الأئمة مهمة التدريس أما دراسة الطب فمنعدمة لوجود عدد قليل جدا من الأشخاص الذين يطلق عليهم لقب أطباء مجازا، نظرا لمعلوماتهم البسيطة التي لا تتعدى العلاج الخارجي لبعض الأمراض، ولاعتقاد الناس الخاطئ بأنهم يعترضون على قضاء الله وقدره إذا حاولوا التداوي من الأمراض التي تسلط عليهم إما عقابا أو امتحانا.

وقد تفرد شو بذكر فن الموسيقى عند البدو والأندلسيين والأتراك وذكر آلاتهم الموسيقية المتنوعة، ولكن بما أنهم لا يضعون علامات لألحانهم، ولا يعزفون القطع الموسيقية حسب القواعد فهو يشك إن كانوا يعتبرون الموسيقى علما من العلوم.

بينما سار باناني على خطاه وتكلم هو أيضا عن الموسيقى والغناء وقال: إن التشريع الإسلامي قد حرمهما إلا أن القسم الأعظم من المسلمين شغوف بتذوق الموسيقى والاستماع إليها.

ومن الأرجح أن يكون باناني قد اقتبس عن شو الكثير ويتضح ذلك حين نقارن الفقرات التي تكلم فيها شو عن تعليم الأطفال، وعن الأطباء وعن الآلات الموسيقية مع نظيراتها عند باناني فنجد التشابه الواضح الذي لا يخفى على أحد[2].

---

[1] – وقد زاد كاثكارت بعض التفسير والتعليق عليه ومعلومات عن المؤلفين المسلمين، وقال أن أغلب الناس يعلمون أبناءهم في منازلهم بينما يعيش طلبة المدارس في فقر مدقع حيث لا مورد لهم سوى صدقات المحسنين والأصدقاء.

انظر : جيمس ليندر كاثكارت، ***المصدر السابق***، ص ص. 98، 99.

أما هايدو الذي كان سباقا في وصف طريقة التدريس في النصف الثاني من القرن السادس عشر، فقد أوكل مهمة التدريس للمرابطين (Marabouts) الذين يعلمون الأطفال قراءة وكتابة العربية والتركية –لوجود مدارس مخصصة لكل لغة– ويعلمونهم كذلك الحساب حسب جدول فيثاغورس (Pythagore)، وشهور السنة القمرية ليتمكنوا من تحديد أيام الأعياد والاحتفالات ولكن كل هذا بطريقة فظة، والكتاب الذي يستعملونه لتدريس الأطفال عندما يتعلمون الحروف وكيفية جمعها هو القرآن، انظر : Diego de Haëdo, ***Op cit***, p .114. والمدارس التي تعلم بها اللغة التركية على حد قول هايدو لم تكن في حقيقة الأمر سوى المساجد الخاصة بالأحناف كمسجد كتشاوة الحنفي.

[2] - Thomas Shaw, ***Op cit***, pp. 78- 81, 89 – 91. و

Filippo Pananti, ***Op cit,*** pp. 368, 371, 372, 379, 380.

خامسا- لمحة عن الحياة الطبيعية :

لقد كان من ضمن الرحالين الذين زاروا الجزائر ثلاثة علماء بالطبيعيات هم بيسونال ودي فونتين وبواري فكان من الطبيعي أن يكون اهتمامهم منصبا أكثر على المجال الذي تخصصوا فيه حيث قاموا بدراسة شاملة لجميع حيوانات الإيالة المفترسة والأليفة وكذلك الطيور والزواحف والحشرات والأسماك كما درسوا أصناف النباتات والمعادن وجغرافية المنطقة ومناخها.

وبالرغم من تكوينه الديني كدكتور في علم اللاهوت إلا أن شو الذي جاء إلى الجزائر قبلهم جميعا تناول في رحلته المواضيع نفسها تقريبا بحيث استحوذت على ثلثي كتابه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

مقتطفات من أشهر الرحلات

أولا - الأب بيار دان

ثانيا - الأسير إمانويل دارندا

ثالثا-مساعد القنصل لوجيي دو تاسي

رابعا- الدكتور توماس شو

خامسا- الدبلوماسي المستشرق

فونتير دو باراديي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

مقتطفات من أشهر الرحلات

لما كانت الرحلات الأوروبية كثيرة،وتختلف فيما بينها من حيث الشهرة والأهمية. فقد اخترت خمسا منها وهي لكل من إمانويل دارندا، توماس شو، فونتير دو بارادي — لأن محور الدراسة يدور حولهم — بيار دان ولوجيي دو تاسي؛ لأقتطف منها بعض النماذج التي يمكن أن تظهر من خلالها الفوائد الإخبارية لهذه الرحلات.

فرحلة دارندا التي كانت في منتصف القرن السابع عشر. تلقي أضواء على حياة الأسرى،وطريقة تعايشهم فيما بينهم ومع أسيادهم،وتنقل وقائع الحياة اليومية بمدينة الجزائر من 1640 إلى 1642م ،كما عاشها وشاهدها هذا الرحّالة الأسير. ولأن رحلة الأب دان كانت قبل مجيء دارندا بفترة وجيزة -ست سنوات فقط — وتناول من خلالها جميع المآسي التي كان يتعرض لها الأسرى الأوروبيين بدول شمال إفريقيا،وبالتالي يكون دارندا خير من يدحض افتراءات وأكاذيب ومبالغات دان.

أما رحلة الدكتور شو في نهاية الربع الأول من القرن الثامن عشر. فقد غلب عليها الطابع العلمي البحت بينما افتقرت إلى الجانب الإنساني والاجتماعي. فعوض هذا النقص بنموذج رحلة دوتاسي التي كانت في الفترة نفسها — قبل شو بسنتين فقط — والتي أولت أهمية كبيرة لهذا الجانب،وكان شعار صاحبها محاربة الآراء العنصرية المسبقة للأوروبيين وتعصبهم ضد الإيالات العثمانية بشمال إفريقيا.

وأخيرا رحلة دوبارادي في نهاية القرن الثامن عشر. التي اهتمت بكل شيء يخص إيالة الجزائر،وكانت مختلفة تماما عن كتابات دارندا وشو[1]، وقد تقدم كل نموذج بتعريف واف لصاحب الرحلة تبرز فيه شخصيته واستعداده للتأليف.

أولا - الأب بيار دان[2] (Père Pierre Dan) :

الأب بياردان مؤرخ فرنسي حائز على شهادة البكالوريا في علم اللاهوت (Théologie) من كلية باريس، كاهن ورئيس دير الثالوث المقدس الذي أسس بقصر فونتانبلو (Fontainebleau) في القرن الثاني عشر للميلاد، ومستشار وراعٍ للملك الذي يوجد الدير بقصره.

تمثلت مهمة هيئة الثالوث المقدس في تحرير وافتداء الأسرى الأوروبيين. حيث تقتضي القاعدة أن تخصص ثلث مداخيلها لذلك، وقد قامت بحوالي ستين عملية افتداء انطلاقا من الأراضي الفرنسية من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. تَمّ خلالها تحرير حوالي ستة آلاف أسير ، من بينها تلك التي كُلّف بها الأب دان إلى شمال إفريقيا، حيث استطاع الإبحار إلى الجزائر يوم 12 جويلية 1634 بعد عوائق مختلفة أخرت موعد سفره، وقد مكنته رحلته من تحرير إثنين وأربعين أسيرا عاد بهم إلى فرنسا في مارس 1635، ومن جمع المادة الأولية لكتابه[3] تاريخ بربارية وقراصنتها الذي نشر بباريس سنة 1637. وفي السنة الأولى التي توفي فيها أي 1649 ظهرت طبعة جديدة للكتاب بها إضافات كثيرة وقد عربت من رحلته ما يلي :

---

[1]- Venture de Paradis , ***Alger au XVIII^ème^ siècle (1788-1790)***, Op.cit, p.15.

[2] - ترجمة حياة الأب دان (Biographie) أخذتها من الموقع الإلكتروني

http://www.algerie_ancienne.com حيث يمكن قراءة الكتاب أو تحميله (télécharger)، وانظر كذلك: Denise Brahimi, ***Op. Cit***, p.13.

[3] - Le Père Dan, ***Histoire de la Barbarie et de ses corsaires***, Pierre Rocolet, Paris, 1637.

وقد صدر الكتاب بعد موافقة دكاترة في علم اللاهوت.

1- النزاهة العجيبة لأحد قضاة الجزائر[1] :

في جميع المدن التي يوجد فيها للسلطان العثماني باشا أو نائب عنه، عادة ما يتم كذلك إرسال قاض لإحقاق العدالة وحول هذا الموضوع سأنقل الخبر الآتي، في سنة 1617، وبعد علم السلطان[2]، باختلال النظام القضائي بالجزائر نتيجة قيام من كلفوا بالسهر على نشر العدل، ببيع حقوق الناس، بمبالغ كبيرة خلال كامل مدة إدارتهم، ولإيقاف استفحال هذا الداء الذي مس أحد أهم الأجهزة الإدارية التي تقوم عليها الدولة، قرر السلطان إرسال أحد القضاة المشهورين في تركيا وهو رجل نزيه في أعماله، محافظ على العدالة حريص على تطبيقها، منهمك في خدمة مصالح دولته، وبوصوله إلى الجزائر رأى أنه يجب عليه أن يقوم بمهمته بعناية فائقة حتى تعم العدالة الجميع في وقت وجيز.

ولإرجاع هؤلاء البرابرة[3] إلى جادة الصواب، يجب أن يكون نفوذه عليهم كبيرا وأن يكون مهابا وصاحب سطوة، ورغم كونه صارما وجادا بطبعه إلا أنه لم يكتف بذلك وعمد إلى استئناس زوج من الأسود[4] بمنزله، ومتى نظر في الخصومات يحضرهما إلى

---

[1] - Le père Dan, ***Op.cit,*** pp. 284-288

[2] - السلطان الخامس عشر (15) من سلاطين آل عثمان وهو مصطفى الأول الذي تولى عام 1026هـ-1617م

[3] - البرابرة (Barbares) : اسم أطلقه الإغريق على كل الشعوب بما فيها الرومان التي بقيت خارج نطاق حضارتهم ثم استعمله الرومان بدورهم على كل من لا يشارك في الحضارة اليونانية –الرومانية ومنه اسم بربارية (Barbarie) أو الدول البربرية الذي أطلق قديما على منطقة شمال إفريقيا الواقعة غرب مصر (ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب)، وقد استعمل المؤلف كلا الإسمين في كتابه انظر :

Philippe Merlet dir, ***op.cit***, p.1197.

[4] - أشار العديد من الرحالة الأوروبيين إلى وجود الأسد بالجزائر كشوبيسونال ودي فونتين وبواري وبانانتي وقد كان أسد شمال إفريقيا هو المستعمل في استعراضات روما، ولا ندري لماذا انقرض تماما من هذه المنطقة وهل يعود ذلك إلى استعمال الأسلحة النارية بشكل واسع من طرف السكان كما لاحظ شو أم إلى الحمى التي كانت تقتل صغار الأسد كما أخبره العرب بذلك أم إلى لحمه المطلوب جدا من الأهالي والذي يشبه لحم العجل في رائحته وطعمه. وقد رأى علي أفندي بن حمدان خوجة الجزائري الأسد بنفسه أثناء ***رحلته من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال عام 1832م***، انظر : تفاصيل الرحلة التي ترجمها أحميدة عميراوي، منشورات جامعة=

جانبه بحيث يجلس على الأرض -كعادة الأتراك- على الفراش المخصص له ويضع يديه على رأسيهما فيجعلهما كأريكتين يريح ذراعيه عليهما فيزداد الناس مهابة منه ويتضح لهم أن الذي يستطيع التحكم في الحيوانات الأكثر شراسة قادر على ردهم عن غيهم. وقد أتى أحد الأهالي لزيارته ومعه العديد من سلال الفاكهة كهدية.فلما سأله إن كان يرغب في شيء منه،وأجابه بأنه جاء من أجل قضية يريده أن يفصل له فيها، طلب منه القاضي تقدير ثمن الفاكهة التي أحضرها ليدفع له ثمنها ولكنه أصر على رفض المقابل قائلا: إنها تعتبر هدية صغيرة وأنه يرجو منه أن يتقبلها و لم يدر إلا بعد حين أنه بهذه الطريقة يكون قد أهدى له مالا أي رشوة، فما كان من القاضي إلا أن قال له: لا، يجب أن ندفع لك ثمن فاكهتك وأمر في الوقت نفسه أحد شواشه بضربه خمسين ضربة عصا وهو ما نفذ في الحال، مضيفا أنه هكذا تكون مكافأة الذين يريدون رشوة العدالة بالهدايا.

ونلاحظ أنه من الصعب جدا أن نجد رجلا أكثر عدلا وإنصافا من هذا القاضي الذي له من الصفات الفاضلة ما يجعله رجلا كاملا لولا أنه غير مسيحي!

علمت من أحد أصدقائي، وقد كان كثيرا ما يتردد عليه، أنه في أحد الأيام وبينما هما يتحدثان حول مساوئ وعيوب الناس قال له : "لقد لاحظت ثلاثة أشياء لا تعجبني للغاية : الأولى، التحلل (الأخلاقي) الكبير للأتراك، الثانية، احتفالات اليهود الكثيرة والثالثة، منازعات النصارى[1]ولأنه كان رجلا صالحا في مدينة فاسدة كالجزائر فقد أدى ذلك إلى أن لا يبقى طويلا في منصبه. فهو أثناء قيامه بمهمته لا يسامح أحدا على حساب آخر، كأنه معصوب العينين فلا يفضل بعضهم على بعض.

حدث وأن ارتكب أحد أعضاء الديوان برتبة بولوك باشي[2] خطأ فادحا فأرسل في طلبه، وبعد أن حذّره بشدة من مغبة تكرار ذلك، أمر شواشه بضربه مائة مرة بالعصا،

=منتوري، قسنطينة، 2000.

[1] - متى كانت الاحتفالات الكثيرة التي نسبها لليهود من العيوب أو النقائص ؟ وكيف لقاضٍ مسلم يتصف بالأخلاق الحميدة التي جعلت له المكانة والحظوة عند السلطان العثماني أن يصف بني جلدته المسلمين بالتحلل والفجور!

[2] - انظر ملحق تعريف المصطلحات والأسماء العثمانية.

فلما رأى أنهم اعتذروا عن تنفيذ ذلك بحجة أنه من الجنون ضرب أحد أعضاء الديوان، صاح فيهم قائلا : "هل يجب أن تشيع الآفات وتغيب العدالة من أجل هذا وأخذ العصا ونفذ العقوبة بنفسه وهو يقول بصوت مرتفع بأنه لا يهمه ما سوف يحدث وأن هذا لا يمنعه من الوفاء بمهمته وفي هذه الحالة سيتحمل بثبات كل أصناف المصائب والنكبات.

وقد سارع هذا البولوك باشي إلى الديوان حيث اشتكى من المعاملة السيئة – حسب زعمه– التي تلقاها من القاضي، فانفعل جميع أعضاء الديوان وأحدثوا ضجة كبيرة لأنهم قد أهينوا –حسب اعتقادهم– بهذا الفعل الذي يمسهم جميعا وأنه يجب إرسال الجلاد الذي يتواجد دائما بالديوان ليخنق القاضي على الفور بواسطة أحد العبيد. ولكن نظرا لمكانة القاضي الكبيرة عند السلطان العثماني وأكابر الديوان وخوفهم أن يكلفهم ذلك حياتهم فقد اكتفوا بطرده من مدينتهم ومن إيالتهم وأركبوه في الباخرة ليعود إلى القسطنطينية، وأثناء توقف الباخرة بميناء بترت قريبا من تونس، استطاع البولوك باشي الذي أخذ جزاءه العادل أن ينتقم لنفسه بواسطة الخيانة العظيمة لأحد خدم القاضي، والذي قطع رأس سيده وهو يصلي في غرفته نظير رشوة أخذها منه.

وقد قبض على الخادم في الوقت نفسه الذي ارتكب فيه جريمته، وبعد أن طافوا به كامل المدينة وهو محمول على حمار نال عقابه حيث كُسّر ومُزّق إلى أشلاء.

يوجد في كل مدينة مدارس عديدة يسمونها مساجد ! أين يتعلم الأطفال الصغار القراءة والكتابة والحساب ولا شيء غير ذلك، ولمعاقبتهم يستعملون في مكان القضبان الخشبية أو المعدنية مسطرة خشبية صغيرة حيث يضربون على باطن أقدامهم. يقرأ الأطفال القرآن من أوله إلى آخره، ولما يتم التلميذ قراءته كاملا، يقوده كل رفقائه عبر الطرقات وهو في كامل أبهته، مرتديا أفخم ثيابه، حيث يمدحونه جهرا[1].

إن استعمال ريشة الكتابة التي نستخدمها هنا (في أوروبا) محرم بين هؤلاء البرابرة، لأنهم يعتقدون أن استعمالها من الخطايا مهما كان الطير الذي نأخذها منه،و يستخدمون

[1] – زملاء التلميذ كانوا يحتفلون بحفظه للقرآن الكريم كاملا وليس لمجرد تمكنه من قراءته، أما عن مدحهم له بصوت مرتفع فربما كانوا يرتلون ما تيسر من القرآن الكريم.

مكانها أعوادا صغيرة من القصب،و السبب في هذا المنع مضحك للغاية،و يرجعونه إلى عصيان الريشة لله عندما أمرها بالكتابة في ابتداء الكون فلعنت لذلك.

ولديهم العديد من العادات المفسدة، وهم مستسلمون للغاية للسحر والشعوذة خاصة عندما يحسون بالألم فيستعينون ببعض النساء المختصات في هذه المهنة الشيطانية، واللواتي يشفونهم بحروف وكلمات مأخوذة من القرآن ! كذلك لا يوجد أطباء بينهم، ولكن فقط الحلاقون والجراحون وقليل من الصيادلة والعطارين الذين يقومون بهذا الدور، ومنهم من يستعينون بخرافة طريفة يعتقدون أنها تقضي على آلامهم،وتتمثل في زيارة بعض الأماكن حيث دفن بعض مرابطيهم الذين يقدرونهم،ويعتبرونهم كقديسين أين يضعون كمية من اللحم على أضرحتهم،ويعتقدون لجنونهم أنهم يطعمونهم رغم أنهم موتى، فإذا أكلت الحيوانات من ذلك اللحم زال الألم عن المريض فيشفى على الفور، أو على الأقل هذا ما يتصورونه.

وأثناء اقتراب موعد وضع حملهن تستعمل النسوة خرافة أخرى أراها جد غريبة وقد رأيتها بنفسي وأنا أتجول يوما في مدينة الجزائر حيث يرسلن في طلب أربعة من أطفال المدارس ويعطونهم قطعة كبيرة من النسيج يمسكونها من أطرافها الأربعة وفي وسطها توضع بيضة دجاجة ثم يطوفون بها الشوارع وهم يرددون بعض الأدعية بالتناوب، ولما يسمعهم الأتراك والأهالي الذين تدركهم الرحمة والشفقة على المرأة الحامل فيسارعون إلى الخروج من منازلهم وهم يحملون جرار الماء ويصبونها فوق البيضة ويتخيلون أنه في الوقت نفسه الذي تنكسر فيه البيضة بواسطة الماء المسكوب تتخلص المرأة الحامل من آلامها وتنجو لحسن حظها هي وصغيرُها، وهذا لا يتم حسب الظاهر دون بعض العهود الضمنية مع الشيطان ! ومثل هذا السحر والرقى المؤذية شائع الاستعمال بينهم إلى درجة التعود على استخدامه في جميع المناسبات.

وإلى هذا الوهم يضيفون آخر ليس أقل إثارة للسخرية منه، فلشفاء ألم الرأس يأخذون خروفا أو جديا ويجرونه عبر الحقول حتى ينال حظه من الآلام والجراح ولحظتها فقط يقتنعون أن ألم الرأس قد انتقل من المريض إلى الحيوان.

وهم يستعملون كذلك الكثير من أنواع الرُقى المختلفة، فكل من يحس بالمرض أو تكون له بعض الأعمال غير المنجزة يسارع إلى الاستعانة بالعرافين والسحرة الذين يمدونه ببعض الأوراق الصغيرة المليئة بالحروف والرموز حيث يعلقها في مكان ما من جسده معتقدا الشفاء من مرضه والخروج بسلام من المآزق التي أثرت في أعماله .

وهناك من العرافين من ينبئهم بالكثير من الأخبار الغيبية التي يودون معرفتها ويتم ذلك على الملأ وبحضور العديد من الناس حيث يخطون لهم رموز على الأرض يخبرونهم بواسطتها عن كل ما يتحرقون إلى معرفته وكل هذا مسموح ومباح كما سنوضحه بإسهاب فيما بعد.

ومع كل هاته العيوب التي تلطخهم بشدة، توجد فيهم صفتان جديرتان بالاحترام الأولى أنهم لا يذكرون أبدا اسم الله بسوء مهما كانت شدة غضبهم حتى إنه لا يوجد في لغتهم التركية أو العربية أي كلمة أو مصطلح يستطيعون استعماله لسب الذات الإلهية ووحدهم فقط المرتدون (المهتدون) من يفعلون ذلك بلغتهم الأصلية في بعض الأحيان فإذا كان ذلك بحضور الأتراك فإنهم يتلقون توبيخا شديدا وعادلا في الحال. والثانية أنهم بالرغم من وقوع شجارات فيما بينهم إلا أنهم لا يتشابكون بالأيدي إلا نادرا ولا يتقاتلون أبدا.

والأمر الآخر الذي يجعل هؤلاء الكفار! معتبرين بعض الشيء، الصدقات التي يخرجونها بطيبة خاطر وكذلك الأفعال الخيرية كبنائهم للمستشفيات لعابري السبيل على اختلاف دياناتهم وحفرهم للآبار وإيصالهم لينابيع الماء للأماكن المقفرة في الصحاري والأرياف لنجدة ومساعدة المسافرين وكذلك إصلاحهم للطرقات وبنائهم للجسور في أماكن السيول وغيرها حيث يلاحظون المتاعب التي يعاني منها عابروا السبيل.

وهاته الصفات والأفعال الخيرية لا يقتصر فعلها على الأغنياء فقط بل يمارسها الفقراء أيضا بأنفسهم وبسرور بالرغم من احتياجهم حيث يشاركون بجهدهم في حفر الآبار وبناء الينابيع وإصلاح الطرقات العامة دون انتظار للأجر سوى من الله.

كذلك لا تقتصر هاته الصدقات على الإنسان فقط،بل تتعداه إلى الحيوانات أيضا، مثل الكلاب والقطط حيث توجد بعض المؤسسات التي تحمل الماء إلى أحواض توجد في زوايا الشوارع لترتوي منها الحيوانات التي لا تجد الماء بسهولة،وتحمل لهم أيضا الطعام دون نسيان الطيور كالغربان والأنواع المشابهة لها،والتي تعيش على النهب حيث يشترون الأمعاء ويرمونها لها في البراري، ويقولون أن الداعي إلى هاته الصدقات أن الله أعطى للإنسان لسان يطلب به حاجته إذا لم يجدها بينما لا تستطيع ذلك الحيوانات[1].

ثانيا - الأسير إمانويل دارندا (Emanuel D'aranda) :

إمانويل دارندا من أشهر رجال فلاندرة الغربية (Flandre occidentale)[2] ، قبض عليه قراصنة أتراك يوم 22 أوت 1640 بسواحل بريطانيا (Bretagne)[3] ، وبعد سنتين من الأسر بمدينة الجزائر سيلاقي هذا البلجيكي بسبب هذه التجربة الطارئة مجده الآتي.

لأن دارندا المعروف يعود الفضل في شهرته للجزائر التي لولاها لما كان كاتب الرحلة شيئا يُذكر[4].

وقبل تقديم المقتطفات التي عربتها من كتابه، ارتأيت افتتاحها بهذه الفقرة التي جاءت في مستهل مقدمة الكتاب وبقلم المؤلف والتي تؤكد ما سبق.

"صديقي القارئ، أقدم لك ها هنا عملا غير جدير بتسمية تاريخ أو رواية وإنما أنباء بسيطة ومجردة وحقيقية عن الوقائع الغريبة والمختلفة التي صادفتها وكذلك السعادة

---

[1] - بعد أن وصف سكان الجزائر بأقبح الصفات وأسوأ الأخلاق تحت تأثير خلفيته الدينية وأحكامه المسبقة ها هو الكاتب يتناقض مع نفسه وينسب لهم من الأفعال الحميدة التي شملت الإنسان والحيوان والتي لا تجتمع مع الأولى في شخص واحد في أي حال من الأحوال.

[2] - فلاندرة الغربية : من أقاليم بلجيكا الحالية، الناطقة باللغة الهولندية من أهم مدنها بروج التي ولد بها دارندا.

[3] - بريطانيا : منطقة إدارية تابعة لفرنسا بأقصى الغرب تطل على المحيط الأطلسي.

[4]- Emanuel d'Aranda, ***les captifs d'Alger***, Casbah, Alger, 2004, pp. 11, 259

والشقاء اللذان عشتهما طيلة مدة رحلتي، أو رأيت وقوعها للآخرين، بحيث أقر ببساطة أن ما حصلت عليه منها وفي وقت وجيز يعادل أو يفوق الفائدة التي نلتها خلال سنوات تحصيلي للدراسة العديدة"[1].

1- الحاجة أم الاختراع[2]:

عندما كنت في سجن[3] علي بجنين كنّا حينئذ خمسمائة وخمسين مستعبدا مسيحيا، والذين يجب عليهم يوميا توفير طعامهم بأي حرفة يتقنونها.

وإنه لشيء جدير بالإعجاب، عندما يبادر كل واحد إلى حرفته في مثل هذا الاحتياج، ويعتبر الاختلاس الأكثر شيوعا في هذه المدرسة. كان في السجن أسير إيطالي اسمه المستعار فونتيماما (Fontimama) يعتمد على مهارته في السرقة إلى درجة دعوة أصحابه وقت الظهيرة للعشاء بما سيكسبه من مهنته كلص دون أن ينشغل قلبه بالكيفية التي سيوفر بها الطعام لضيوفه من ساعة الدعوة حتى الموعد المحدد للأكل.

في أحد الأيام دعا رفيقي رينيي سالدون (Rénier Saldens) على الساعة العاشرة صباحا بشرط أن يقوم بجولة معه في المدينة قبل العشاء. قاد فونتيماما سالدون عند بعض اليهود الذين يعملون في صرف العملة، والذين يوجد منهم عدد كبير بالجزائر حيث ينتشرون في الطرقات بطاولاتهم الصغيرة ويبادلون دراهمهم بالعملات الأوروبية المتداولة بالجزائر ويكونون ربحهم من هذه المقايضة. طلب فونتيماما دراهم[4] مقابل نصف باتاغون (Patagon)[5] وأظهر القطعة السليمة ثم ساعد اليهودي في العد ولما تمت عملية

---

[1]- Emanuel d'Aranda, ***Op.cit,*** p.23

[2]- ***Ibid,*** pp. 148-149,151-152

[3] - استعمل الكاتب لفظ (Bain) أي الحمّام وهو المكان الذي كان يحتجز فيه الأسرى المسيحيون في الدول الإسلامية واللفظ الأكثر شيوعا هو (Bagne)، حول أصل هذه الكلمة ومعناها انظر:

Gabriel Audisio, « Recherches sur l'origine et la signification du mot BAGNE », ***R.A***, tome CI, 1957, pp. 363-380.

[4] - استعمل دارندا لفظ (Aspre) للدلالة على الدرهم كغيره من الكتاب الأوروبين، والدرهم عملة عثمانية مضروبة بالجزائر انظر : Lemnouar Merouche, ***Op.cit,*** P.30.

[5] - الباتاغون : عملة قديمة من الفضة لبلاد الفلاندر والمقاطعات الفرنسية توجد منها قطع 1 و 2/1 و 4/1 =

الحساب أعطاه قطعة مزيفة ولما كان اليهودي خبيرا في النقد فقد طرده ولكن بعض الدراهم مكثت بيد هذا اللص المحتال وبعدها ذهب إلى يهودي آخر وهكذا حتى عاد مع منتصف النهار ومعه زوج من الدجاج ومبلغ من المال يكفيه لشرب النبيذ الفاخر حتى يثمل.

وفي إحدى المرات كان على متن سفينة سيدنا بجنين (بتشنين) على ساحل بربارية وقد نزل مع بعض العبيد لليابسة ليقوموا ببعض الأشغال المتعلقة بالسفينة فلما رآهم عرب تلك المنطقة اجتمعوا حولهم وطلبوا منهم إن كان لديهم حديد للبيع لأنه جد مطلوب في هذا المكان فباعوا لهم مسامير وأدوات حديدية غير ذات أهمية فانطلق المشترون وأخبروا جيرانهم أنهم اشتروا الحديد من عند عبيد السفينة.

ولما سمع عربيان أنهم يبيعون الحديد بسعر رخيص سارعا إلى عين المكان ليشتريا منه هما كذلك وتوجها نحو فونتيماما الذي أخبرهما بأنه سيبيع لهما مرساة السفينة بخمسة باتاغونات ولما قبض الثمن قال لهما: "صديقاي، إنه من المستحيل أن تحملا كل هذا الثقل لوحدكما، اذهبا واحضرا بعض جيرانكما وسأساعدكما أنا أيضا" فما كان من العربيين السّاذجين سوى الجري نحو الجيران لطلب المساعدة وما لبثا أن عادا ومعهما عشرون عربيا فصعدوا إلى السفينة، و بدؤوا بفسخ الحبل لأنها كانت مرساة الاحتياط. ولما رأى الجنرال بجنين الذي كان نائما على فراش من القطيفة في مؤخرة السفينة هؤلاء العرب وهم يتشاجرون مع الجنود الأتراك في مقدمة السفينة لأنهم منعوهم من أخذ المرساة، سأل لماذا يحدث هؤلاء العرب كل هذه الضجة فلما حكوا له قصة بيع فونتيماما للمرساة أمر لساعته بطردهم من سفينته حيث نفذ الأمر مع ضربات بالسوط تلقوها عوضا عن المرساة وبعدها سأل بجنين فونتيماما لماذا باع مرساة السفينة التي لم تكن ملكا له. فأجاب بأنه ظن بأن السفينة سوف تسير أحسن لو وضعنا عنها هذا الثقل فضحك كل من كان على ظهر السفينة والخمس باتاغونات صارت إليه...

كان هناك روسي من موسكو عمره ثمانون سنة عاجزا عن فعل أدنى عمل دون

= وقد استمر استعمالها حتى سنة 1679 انظر : Denise Brahimi, ***Op. cit***, p .43

التعرض للإصابة، فكان يقوم بتنظيف السجن وكل أسبوع يجمع الصدقة من الأسرى والقليل الذي يعطونه إياه يقتات منه.

عرفت كذلك في هذا المكان فتى من هامبورغ فقد ذراعه أثناء المعركة التي أسر فيها فما هو الحل ليكسب قوت يومه ؟ والسيد لا يعطيه شيئا فلما حصل على نصف باتاغون من أحد مواطنيه اشترى به لعبة وصار يؤجرها للأطفال الذين يلعبون خارج المدينة بالقرب من البوابة ويكسب جيدا معيشته.

أما الإسبان الذين يسمح لهم بتسيير الحانات فهم يعيشون بين الأسرى كالأمراء وفي زمن وجيز يتمكنون من افتداء أنفسهم لأن الفرق بين سعر شراء النبيذ وبيعه كبير، وكان هناك أيضا ستة جراحين يكسبون مالا وفيرا بعملهم كممرضين للأغنياء ولكنهم كانوا يضيعون ما كسبوه في النساء والخمر.

وآخرون كانوا يخيطون الجوارب وغيرهم ينسجون ولكن السرقة كانت الحرفة الأكثر ممارسة وكل مساء يبيعون ما سرقوه بالنهار علانية، وكما أخبرت بإسهاب في الحديث عن رحلتي فإن الكهنة يعيشون على صدقات الأسرى المسيحيين.

وباختصار كل واحد من أي وطن لا يعدم وسيلة للعيش باستثناء الإنجليز فهم أمة عاجزة عن العيش بالتقتير كالآخرين ويبدو أنه لا توجد لهم صداقات حتى مع مواطنيهم، وقد لاحظت في أحد فصول الشتاء التي قضيتها بالسجن أنه مات لهم أكثر من عشرين من الفقر. كذلك هم غير مقدرين من الأتراك حيث يباع الإنجليزي بستين أو سبعين باتاغونا والإسباني أو الإيطالي بمائة وخمسين أو مائتا باتاغون، وهذا عندما يقدر الأسير حسب قيمته الجسدية وليس عند الافتداء.

كان هناك أسرى آخرون يعرفون منازل معينة يحضرون لها الماء يوميا ويخلصونها من القمامة ويعيشون بالأجر الذي ينالونه من ذلك ولكن يجب أن تعرفوا أن كل هذه الطرق لكسب العيش تتم فقط عندما يكون عمل السيد منجزا.

وقد كان سلواني في هذا السجن تأملي في كل ما يحدث حولي بين الأسرى حتى أنني حين أكون ماكثا ببيت معلمي محمد جلبي آغا ولكي أتسلى أذهب إلى السجن

لأتحدث بلا تكلف مع فرانسوا الطالب[1] حيث لا ينعدم أبدا وجود أسرى من دنكرك (Dunkerque)[2] حوله يروون مغامراتهم ولقاءاتهم في البحر. أما الهولنديون فما يجري في الهند الشرقية[3] واليابان والصين، والدانماركيون وأهل هامبورغ يتحدثون عن صيدهم لسمك الحوت بغرينلاند، وفي أي وقت من السنة تشرق الشمس على إسلاندا حين تتم ليلتهم ذات الستة أشهر. وإذا لم يعجبني مثل هذا الحديث أذهب عند الإسبان الذين يحكمون دول ملكهم بأسلوبهم حيث يحدثونني عن ملذات المكسيك وثروات البيرو أما إذا ذهبت عند الفرنسيين فأصغي إلى حديثهم عن الأرض الجديدة (Terre neuve) وكندا وفيرجينيا لأن كل العبيد تقريبا من رجال البحر.

عزيزي القارئ، لقد عرضت عليك ما كان يحدث بين الأسرى والوسائل التي كانوا يكسبون بها حريتهم، لأريك أن الحاجة أم الاختراع وأنه لا توجد جامعة أحسن من سجن الجزائر لتعليم الناس كيف يعيشون[4].

---

[1] - ذكره الكاتب في موضع آخر قبل هذا وهو من بلاد الفلاندر فهو من مواطنيه، اسمه فرانسوا دوفو (François de vos) واسمه المستعار فرانسوا الطالب (l'étudiant) لأنه كان كسكرتيرا للأسرى خاصة الفلاميين والهولنديين حيث يكتب لهم رسائلهم.

[2] - تابعة لبلاد الفلاندر وناطقة بالهولوندية (حاليا تتبع دولة فرنسا).

[3] - مستعمرة هولندية هي أندونسيا الحالية.

[4] - لقد تزامنت إقامة دان سنة 1634 بالجزائر مع إقامة دارندا بالمدينة نفسها سنة 1640، فالأول أقام الدنيا و لم يقعدها للفضائع والأهوال التي كانت تحدث للأسرى المسيحيين بالجزائر وكذلك كامل الدول البربرية حتى أنه خصص في كتابه - ذي الستة أجزاء - جزأين كاملين لما كانوا يعانونه من عذاب وشقاء بين الكفار (المسلمين) إلى درجة أنه وضع قائمة بثلاثة وعشرين نوعا من طرق التعذيب المطبقة على الأسرى انظر: P.Dan, ***Op. cit,*** pp. 413-416 وهو الذي جاء في إطار رحلة فداء وأقام بالجزائر المدة التي شاء دون أن يتعرض له أحد بأذى وحقق هدفه الذي جاء من أجله بتحريره لإثنين وأربعين أسيرا عاد بهم إلى فرنسا، وقد عربت الصفحات من كتابه التي حاول فيه إظهار بعض الأخلاق الحميدة التي يتحلى بها الجزائريون إلى جانب الكثير من العادات المقيتة والتي مردها إلى تفشي الجهل و التخلف ليس إلا -إن كان صادقا فيما يزعم- بينما الثاني (دارندا) الذي كان هو نفسه أسيرا على العكس من دان وبالتالي من المفروض أن يذكر وقائع البؤس والعذاب بصورة أوضح وأحسن من دان بحكم معايشته لها واصطلائه بنارها داخل السجن، لم يذكر من ذلك شيئا خلال كامل كتابه (ويستطيع القارئ أن يلاحظ ذلك من خلال هذه الفقرة أو بالرجوع إلى كتابه) بل سعى في تحرير نفسه وهو داخل-

ثالثا – مساعد القنصل لوجيي دوتاسي (Laugier de Tassy)[2].

لسوء الحظ سيرة هذا الرجل غير معروفة جيدا، فكشاف أهم الفرنسيين الذين أقاموا بالجزائر من 1686 حتى 1830 لـــ .أ. دلفو (A. Del Voux) ، خصص له ملاحظة قصيرة : "لوجيي جاك فيليب (Laugier Jacques Philippe) مُعيّن كموثق للعقود في القنصلية الفرنسية بقرار 27 جويلية 1717 والذي سجل بالجزائر يوم 16 جانفي 1718. يغادر بسرعة وبلا رجعة يوم 02 جويلية من السنة نفسها بعد إقامة دامت خمسة أشهر ونصف تاركا لقنصله م. بوم (M. Baume) عبء ديوان القنصلية الذي تحمله بنفاذ صبر قرابة خمسة أشهر.

وقد شكل رحيله نفسه موضوع ملاحظة في سجل ديوان القنصلية : "طلب لوجيي الرحيل وقد ذهب على متن سفينة المعلم موليني دوكاسيس (Moulinier de Cassis) هذا اليوم الثاني من جويلية سنة 1718". وسبع سنوات بعد ذلك يشغل منصب مفوض البحرية لملك فرنسا بأمستردام أين نشر كتابه تاريخ مملكة الجزائر ... لقد كان على اتصال مباشر مع واقع مدينة الجزائر ومن ثم أحب البلد كله بصدق.

1- أخلاق وعادات الجزائريين[3]:

جميع الأقوام التي تعيش في مملكة الجزائر أخلاقها في الغالب مختلة، وتتصف بالكثير من الخشونة والتكبر تجاه الأجانب، باستثناء بعض مفوظي الدولة وبعض التجار الذين يسافرون، وكذلك الأشخاص الذين كانوا مستعبدين عند المسيحيين بحيث يمكننا اعتبار التربية السيئة والجهل هما السببان الرئيسيان لهذا الاختلال فالجزائريون المعتادون منذ نعومة أظافرهم على رؤية العبيد من جميع الأمم في منازلهم، يعتقدون ببساطة أن الشعوب

-السجن وبلغ مراده بعد عامين من الأسر دون أن يتعرض إلى أي نوع من العذاب الشديد الذي ذكره الأب دان.

[2] - Laugier de Tassy, ***Op. cit***, p.II

[3] – ***Ibid***, pp.69-73,79,82.

الأخرى لم تخلق إلا لتخضع لهم، مما يوحي لهم باحتقار مفرط لكل الأجانب وهم يبغضون خاصة الإسبان والبرتغاليين الذين ينظرون إليهم كغاصبين للممالك والبلدان التي كانت تابعة لأسلافهم.

والجنود الذين يشكلون الميلشيا والذين ينحدرون في الغالب من حثالة[1] شعب الشرق، يتخيلون أنفسهم أسياد مملكة كبيرة استطاعوا بمهاراتهم أو بمؤامراتهم الوصول إلى أعلى مناصبها، فيعاملون العرب والأندلسيين بقساوة وبوقاحة لا تحتمل يشعرونهم من خلالها بعلو شأنهم.

هؤلاء الجنود ينظر إليهم كأقوى وأسمى الأسياد ويمنح لهم لقب أفندي الذي يعني السيد، والذي لا يتعداهم إلى غيرهم من العرب والأندلسيين مهما كانت درجة قوتهم ورفعتهم التي اكتسبوها من خلال أصولهم أو ثرواتهم، حيث لا يمنحون سوى لقب سيدي الذي يعني سيد أو سيدي.

أما الداي فيناديه الجنود والقناصل الأجانب بالأفندي ولكن العرب والأندلسيين يدعونه السلطان أو ببساطة السيّد أو السيّد العظيم، وجميع الأجانب غير المميزين والذين لهم مصالح معه ينادونه بالسلطان حتى ينالوا منه القبول والاستحسان. والسبب الذي يحث هؤلاء الكبار الذين تسير الدولة بهم، على الاعتدال أن اللوم يُلقى عليهم عندما لا تأتي الأعمال بالفائدة المرجوة منها، فيعزلون أو يشنقون، وبالتالي يحثهم الخوف من عواقب الأمور على التعقل واللين.

وتجار البلد الذين يسافرون يمكن التأثير فيهم للغاية بحكم مخالطتهم لكل أصناف الأمم فيتخلصون جراء ذلك من آرائهم المسبقة التي تربوا عليها.

---

[1] – استعملت عبارة المؤلف نفسها بالرغم من قسوتها، و ربما يؤيد ذلك ما ذكره حمدان خوجه في مرآته حين أرجع سبب إنحطاط حكومة الأتراك و سقوطها إلى الميليشيا بعد أن فتح المندوبون في إزمير أبوابها لأي كان من المدانين و اليهود و اليونانيين عوضا عن الرجال النزهاء الذين لهم جاه و مكانة كما كان يفعل في السابق فصارت هذه الميليشيا التي لا مبدأ لها ترتكب المخالفات ضد البدو و القبائل ثم قام هؤلاء البؤساء بإشعال الثورات و الإطاحة بقادة الدولة بحسب هواهم. انظر: حمدان بن عثمان خوجه، *المرآة* ، تعريب محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت،ط.2، الجزائر، 1982، ص. 149.

والأتراك والأندلسيون الذين كانوا في الأسر هم الأكثر إدراكا وتعقلا، لأنهم عندما كانوا بين النصارى أزالوا الأوهام عن آرائهم حول قوة وعظمة بلادهم لأنهم رأوا بأس النصارى وعظمتهم وثراءهم وإشراقهم وتحققوا من جميل صنع بعضهم فهم في الغالب الذين يعاملون الأسرى المسيحيين بإحسان لأنهم عانوا من المصير نفسه ويخشون أن يقعوا في الأسر من جديد هم أو أولادهم فيلتمسون من قناصل الأمم الأجنبية شهادات يقرون فيها خطيا بالمعروف الذي أسدوه للأسرى المسيحيين.

وكل الأجانب الذين يصلون إلى مدينة الجزائر يقادون لحظة نزولهم من السفينة أمام الداي بواسطة قبطان الميناء أو أحد ضباطه، حيث يعطيهم الداي يده لتقبيلها ويسألهم باللغة الفرنكية[1] من أين جاؤا وما هو سبب مجيئهم وكذلك عن المكان الذي سيرحلون منه والطريق الذي يجب أن يتبعوه وبعدها يعطى لهم الأمر بالانصراف وغالبا ما يكون معهم ترجمان بلدهم الذي يخدمهم كمرشد ومترجم فوري. والأجانب غير مسموح لهم بحمل السيف في مدن المملكة وفي الجزائر خصوصا والقناصل ومفوضو الأمراء الأجانب لا يحملونه ولو سمح لهم بذلك لأن الطرقات جد ضيقة إلى الحد الذي يضايق فيه السيف المارة مما يؤدي إلى حدوث شجار مع الانكشارية[2] وهو ما يجب تجنبه

---

[1] - اللغة الفرنكية(Langue Franque) وهي خليط من اللغات المتوسطية خاصة العربية والإسبانية والتركية والإيطالية والفرنسية وهي لغة التخاطب في مدن شمال إفريقيا في هذا العهد انظر: Denise Brahimi,***Op.cit***, p. 28 .وقد نشأت هذه اللغة بفعل اتصال الطوائف اللغوية المختلفة التي لم تجد وسيلة أخرى للتفاهم أثناء تواجد الأسرى خاصة الأوروبيين بسجون الجزائر واضطرارهم للتعامل مع العنصر العثماني(التركي، الألباني....) و الجزائري (العربي، البربري، ...) وقد أحصيت أثناء قراءتي لكتاب دارندا "أسرى الجزائر" أكثر من ثلاث عشرة جنسية أوروبية وهذا يعني أكثر من ثلاث عشرة لغة مختلفة أما دارندا فقد ذكر أن العبيد كانوا يتكلمون داخل السجن 22 لغة انظر: Emanuel D'aranda, ***Op.Cit***, p.37.

[2] - لقد كان اعتداء الانكشارية يشمل الجميع بما فيهم الأهالي وهذا منذ بداية العهد العثماني حتى وصلت أنباء ذلك إلى السلطان العثماني كما يتضح في الوثيقة الآتية والتي تثبت من جهة حقيقة وقوع هذه الاعتداءات وشناعتها ومن جهة أخرى حرص السلطان العثماني على تحقيق العدالة وفق الشرع الحكيم وعلمه بما يجري في الولايات التابعة له وعدم غفلته عنها وقد ارتأيت نقلها كاملة والوثيقة محفوظة ضمن مهمة دفتري وهو =

على الإطلاق. وعندما يمر تركي يجب التنحي جانبا قدر الإمكان حتى نترك له متسعا من المكان إذا أردنا أن لا نسمع كلاما مهينا حيث من النادر أن نسير في الشوارع دون أن نتلقى الشتائم من شباب الأتراك والأندلسيين...

ودولة الجزائر تتخذ كمبدأ فيما يخص الدين، الحرية الكاملة لكل فرد في ممارسة ديانته وكلما حافظ المرء على دينه كلما كان أكثر تقديرا وحماية.

والجزائريون يحبون الأسرى الذين يعتنقون الديانة الكاثوليكية الرومانية أفضل بكثير من جميع الآخرين بسبب الاعتراف الذي يجعلهم أحيانا أكثر إخلاصا حتى أن الأسياد يتمنون أن يعترفوا – أي الأسرى-بخطاياهم كل أسبوع. والعديد منهم يعلمون

-الدفتر أو السجل الذي توثق به شؤون الدولة المهمة التي يتم التعامل معها بالأستانة مقر الخلافة العثمانية

مهمة دفتري رقم (30)، صحيفة (228) حكم رقم (532) بتاريخ : 13- 03 – 985هـ، هذا أيضا أعطي إلى أحمد، غلام الكتخدا محمود.

حكم إلى أمير أمراء وإلى قاضي جزائر الغرب.

أمر بتحقيق في اعتداء العسكر على سكان الجزائر.

وردتنا أنباء عن العداء القائم بين سكان المدن و بين طائفة الانكشاريين و من ذلك أن الطرفين يتهجمون و يشتمون بعضهم بعضا حتى أن الإنكشاريين يهددون بقتل أو قطع يد كل من يحتك بهم أثناء مشيهم في الطريق، وأن تلك الأوضاع والأطوار مناقضة للشرع الشريف، ولقد سمعنا بقتل وتشتيت شمل العديد من الرعايا دون ذنب مقترف من خلال مثل هذه العصبيات.

إن الامتثال لأوامر الحق جل وعلا، ولأوامر شريعة صاحب الرسالة وإطاعة أولي الأمر واجب، بل هو فرض عين على المسلمين، وإن قتل أو صلب أو قطع عضو من الأعضاء، أو قطع اليد دون حق، وما أشبه ذلك من العقوبات والتعذيب هو أمر مخالف للشرع الشريف. وإن ممارسة الظلم والتعدي على أي فرد خلاف للشرع والقانون في ظل عدالتنا لن يقابل برضانا، وعليه، فإننا نأمر : حال وصوله، ينبغي التقيد بهذا الأمر، وفيما إذا تكررت مثل هذه التصرفات وحاول خدمنا الانكشاريون قتل أو قطع عضو لأحد ما خلافا للشرع، وإذا لم يمتثلوا للأوامر فعليكم باستدعاء أغواتهم وشيوخهم وتكليفهم بقراءة هذا الحكم الهمايوني على مسمع منهم وعليكما بإرغامهم للرضوخ وإطاعة أمر الشرع الشريف كما يجب تطبيق الشرع لإنصاف كل من قاموا بالهجوم عليهم سابقا، ولا تسمحا بعد الآن لأحد بالتصرف خلافا للشرع والقانون.

هذه الوثيقة منشورة بكتاب مصطفى أحمد بن حموش : ***فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري (956هـ/1549م – 1246هـ/1830م)***، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، دبي، 2000 ، ص ص .121-122.

الكاهن بالأفعال الشنيعة لأسراهم ويرافقونهم بأنفسهم إلى الكنائس أيام الأعياد الاحتفالية كعيد الميلاد وعيد الفصح وعيد الخمسين وغيرها، ويستعلمون بالضبط عن اعترافهم بخطاياهم.

ويجب على المسيحيين واليهود أن يحذروا من التفوه بكلام ضد شريعة الإسلام لأنهم في هذه الحالة سيعاقبون عقابا صارما فمنذ حوالي سبع سنوات، اقتيد قبطان عمارة بحرية إنجليزية صغيرة أمام الداي لأنه أهان دين أحد المسلمين وبعد أن اتهم بالواقعة وثبتت إدانته عوقب بخمسمائة ضربة عصا على باطن قدميه في عين المكان...

والمفلسون يعاقبون بالإعدام في الجزائر الأتراك العاجزين عن الدفع يخنقون والأهالي يشنقون واليهود يحرقون وفيما يخص المسيحيين فإن قناصلهم أو دولهم مجبرة على السداد مكانهم. ويسمى مفلس كل من يهرب دون أن يؤدي ما عليه والذين لا يستطيعون الوفاء بديونهم لدائنيهم يجب عليهم التحلي بالرزانة وأن يسلموا أنفسهم مع كل ما يملكونه حتى لا يتعرضوا للإدانة.

لقد كان القوم بمملكة الجزائر يتباهون على الدوام بعدم أخذ أي احتياط للوقاية من وباء الطاعون، أو لمنع انتشاره لأنهم إن فعلوا ذلك فقد خالفوا الأوامر الإلهية وأركان عقيدتهم التي تدعو إلى التسليم بالقضاء والقدر.

ولقد رأيت بنفسي سنة 1718 قدوم مركب إنجليزي محملا من الإسكندرية حيث كان الطاعون يضرب بشدة حتى أن قبطان هذه العمارة قد توفي في الطريق وكذلك بعض التجار المسلمين وعلى الرغم من ذلك فقد تم إنزال طاقم السفينة، وحمولة الحرير والقطن في اليوم نفسه الذي وصلت فيه السفينة بعد أن قدم القناصل البيانات المعهودة للداي، دون أن يحدث أي عارض[1].

---

[1] - "يذكر ابن حمادوش الجزائري في رحلته أنه في الثالث من رجب 1157هـ الموافق لـ 12/11 أوت 1744م قدم مركب من الإسكندرية بالحجاج وفيه الوباء فمنعهم الباشا من الدخول حمية من أن يقوم ممرض على مصح وأذن لهم بالدخول بعد تحقق سلامتهم من المرض بعد انقضاء 15 يوما" انظر : عبد الرزاق بن حمادوش : *رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة : لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال*، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص. 121. وهذا دليل على أن القوم كانوا على علم-

في حين أن الطاعون الذي عمّ البروفانس[1] عام 1720 و أحدث بها ضررا كبيرا أشاع هلعا شديدا في كل مكان إلى الدرجة التي نسي فيها بمدينة الجزائر (وهذا أمر محيّر) أن هذا الوباء مقدر، و لم يرجع محمد داي العمارات القادمة من مرسيليا فقط بل تعدى ذلك إلى رفضه الترخيص لتسلم الرسائل التي كانت على متن هذه السفن.

لا يوجد أي طبيب بمدينة الجزائر ولا بأي مكان من المملكة لأن المجتمع يدين الشخص الذي يمارس هذه المهنة، والأشخاص الذين يريدون أن يعتبروا من الصالحين يقولون أن أخذ الدواء بلا تبصر لمعالجة الأمراض الداخلية يعد بمثابة اختبار لله.

وقد رأيت الداي بابا علي يحتضر وقد أصابته حمى شديدة ومع ذلك رفض أخذ أي دواء على الرغم من وجود طبيب جرّاح فرنسي ضمن عبيده وهو رجل ماهر قطع عهدا على نفسه أن يشفيه ولكن الداي كان يرده قائلا أن عدد أيامه مكتوب في اللوح المحفوظ منذ الأزل[2].

-بقواعد الحجر الصحي استنادا إلى أوامر الشرع الحكيم دون التسليم الساذج والفهم الخاطئ للقضاء والقدر كما أشار دوتاسي والذي قد يكون مرده إلى الإهمال أو التقاعس في الاحتياط والدليل الإجراءات الصارمة التي اتخذها بعد ذلك محمد داي كما يذكر دوتاسي نفسه وإما أن يكون دوتاسي محقا بحيث بدأ الحجر الصحي مع محمد داي واستمر بعد ذلك كما في رواية ابن حمادوش.

[1] – البروفانس (Provence) : مقاطعة بالجنوب الشرقي لفرنسا ومنطقة تاريخية عاصمتها إكس أون بروفانس (Aix – En - Provence).

[2] – هذا الداي هو علي بن حسين سوكلي، انتخبه الديوان دايا على الجزائر في أوت سنة 1710 كان رجلا ذكيا ومنطقيا ومن أكثر الأشخاص وأقدرهم على جذب الناس إليه والتعلق به. وكان كذلك رجلا ذا نفوذ وصاحب شخصية قوية وهو الذي هجم على الداي دلي إبراهيم الذي احتمى بإحدى غرف قصره بعد أن حاول اغتصاب زوجة أحد الانكشاريين ورمى عليه القنبلة والتي قتل من جرائها عدا عن الدلي ابراهيم ثلاثمائة من الانكشاريين والقولوغلية وبأمر من الرئيس علي جُرت جثة دلي ابراهيم في أزقة المدينة، قام علي داي بإدارة الجزائر بشكل جيد وأسس في المدينة العديد من الأبنية، و قد تعرضت مدينة الجزائر في عهده لزلزال عنيف في الساعة الثانية من صباح 3 فيفري 1712 تهدم من جرائه الكثير من المنازل و أعقبه حريق مورست خلاله أعمال سلب و نهب لم تعرف مدينة الجزائر لها مثيلا كما تعرض قبل وفاته بعدة شهور لمحاولة إغتيال من قبل الإنكشاريين حيث حاولوا حرق قصر الجنينة لكنهم فشلوا في ذلك، أصيب علي باشا بمرض الملاريا و استخدم كافة الأدوية التي وصفت له عكس ما أخبر به دوتاسي-لكنه لم يشف من مرضه و توفي في فبراير سنة =

والجزائريون يقبلون فقط العلاج الخارجي ولكل عائلة أدويتها الخاصة في حالة التعرض لحادث ما.أما عدد المرضى فقليل والناس يعمرون وهم أقوياء وأشداء وهو ما يجب أن نعزوه إلى الاعتدال في الأكل والشرب واستهلاك اللحوم البسيطة وترويض البدن منذ الطفولة المبكرة.

رابعا – الدكتور توماس شو (Thomas Shaw):

يعتبر هذا الانجليزي الأشهر من بين كامل الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المغرب الأوسط في بداية القرن الثامن عشر ويتفق الجميع على قيمة مهمته العلمية التي أنجزها في هذا البلد خلال الإثنتي عشرة سنة التي أقامها بالجزائر من 1720 إلى 1732.

ومع أن عمله كان يقتضي منه الارتباط بمدينة الجزائر بصفته كاهنا لدى مكاتب الشركات التجارية الانجليزية إلا أنه كان يسافر كثيرا حيث زار بالإضافة إلى كل من إيالة الجزائر وإيالة تونس، الدول العربية ببلاد المشرق كسوريا ومصر. وصل الدكتور[1] شو أثناء جولته بإيالة الجزائر حتى جبال ترارا[2] (Trara) غربا، حيث رأى وهران والمدن الساحلية الأخرى والشلف وذهب شرقا إلى جرجرة ثم صعد ثانية نحو الساحل إلى بونة وباستيون فرنسا.

-1717 – دوتاسي يقول أنه شهد وفاته وهو الذي وصل إلى الجزائر يوم 2 جويلية 1718 – حيث خلفه الخزناجي محمد أفندي بن حسن انظر :عزيز سامح إلتر، *المرجع السابق*، ص ص. 462، 466- 468.

[1] – كان الدكتور توماس شو عالما ولكنه لم يكن طبيبا على الإطلاق، لأن لقب دكتور لا يمنح في الغالب للأطباء فقط بإنجلترا ولكن يمنح كذلك لأعضاء الإكليروس (Clergé) والمحامين الذين تحصلوا على هذا المنصب من الجامعة ولقد كان الدكتور شو أكليركيا (Ecclésiastique) أي عضو في إكليروس كنيسة، انظر : Thomas Shaw, ***op.cit***, p. 5 ، ومن الجدير بالذكر أن لقب دكتور لاتيني في أصله، يهودي في نشأته، أطلقه اليهود على حاخام الشريعة اليهودية، وأخذه عنهم المسيحيون، وأطلقوه على عالم اللاهوت "الشريعة المسيحية"، أنظر :غازي عناية *إعداد البحث العلمي (ليسانس، ماجستير، دكتوراه)*، دار الشهاب، باتنة، 1985، ص. 24.

[2] – جبال ترارا : سلسلة جبال على بعد 5 فراسخ (الفرسخ = 4.5 كلم) عن وحدة إحدى مدن مملكة المغرب، تمتد هذه الجبال تقريبا من الجنوب إلى الشمال و طولها حوالي 16 فرسخا و سفوحها مزروعة في عدة مواضع و العرب الذين يعيشون فيها لا يدفعون الكثير من الضرائب فإذا ضايقهم الجزائريون عبروا نحو المغرب و إذا أراد إمبراطور المغرب إشراكهم في طلب خدمة ما عادوا نحو جهة الجزائر، انظر :

Louiche René des fontaines, ***op.cit***, p .177.

1- العلوم والفنون في إيالة الجزائر[1]:

منذ عدة قرون والمسلمون يهملون الفنون والعلوم خصوصا مع أنهم أتى عليهم زمان

كانوا فيه الشعوب الوحيدة تقريبا التي تقدم عناية فائقة وبامتياز لدراسة الفلسفة والرياضيات والطب[2].

فحياة العرب وطريقة عيشهم التي تعتمد على الترحال والتنقل والاستبداد الذي يعامل به الأتراك الأهالي، لا يسمحان لهؤلاء ولا لأولئك بالاشتغال بالعلوم التي لا ينقطع الناس إلى طلبها إلا في مناخ تسوده الراحة والحرية.

فالأتراك الذين يمتازون في الغالب بنفس شديدة القلق والاضطراب تجدهم شديدي التعلق بتجارتهم واهتمامهم بالاغتناء إلى درجة أنهم لا يستطيعون تذوق لذة دراسة العلوم وكثيرا ما أعلنوا أمامي أن الدهشة تتملكهم حين يرون أن المسيحيين يجدون بعض الانشراح في تمضية أوقاتهم وإنفاق أموالهم في تأملات تافهة لا تعود عليهم بأي ربح يذكر.

يرسل الأهالي والأتراك أولادهم الذكور إلى المدرسة حين يبلغون زهاء ست سنوات، حيث يتعلمون هناك القراءة والكتابة دون أن يستعملوا الورق الذي يستعيضون عنه بلوح خشبي دقيق ومربع، طلي بطبقة خفيفة بيضاء يسهل إزالة الحروف التي خطت عليه وعندما يحرزون تقدما في تعلم القرآن الذي يدرس لهم أولا، يعلمون بعد ذلك جميع قواعد دينهم باهتمام بالغ.

---

[1] – مقتطفات عربتها من الفصل الثالث من كتاب الدكتور شو "رحلة في إيالة الجزائر" والذي خصصه للعلوم والفنون والصناعات والأخلاق والممارسات والعادات والألبسة، الخ، انظر:

Thomas Shaw , ***op.cit,*** pp. 77-80, 88-89 .

[2] – لم يبخس الدكتور شو المسلمين حقهم حيث اعترف لهم بالفضل والسبق في مجال العلوم وهذه نقطة تحسب له، لأنه لم يكن كغيره من الأوروبيين الذين حاولوا إنكار فضل الحضارة الإسلامية على العالم قاطبة.

وأجر معلم المدرسة فلسان[1] كل أسبوع عن كل تلميذ. وحين يلفت التلميذ نظر معلمه بكفاءته الخاصة وارتقائه الخارق في دراسته، يلبسه والداه لباسا بديعا، ويركبونه حصانا مجهزا بفخامة، ثم يقوده رفقاؤه عبر الطرقات محتفلين بنجاحه بالهتافات[2]ويغدق أصدقاء العائلة عليه الهدايا ويبادرون إلى تهنئة والديه.

وبعد أن يقضي الطفل ثلاث أو أربع سنوات في المدرسة، يعلم حرفة ما، أو يجند بإحدى فرق الجيش وفي هذه الحالة قليل هم الذين لا ينسون سريعا كل ما تعلموه باستثناء السنجاقدارات[3]. وكذلك الأشخاص الذين يستعملون في تحصيل الإتاوات ومستخدمي مكاتب الجمرك، من حيث إنهم مجبرون على إمساك الحسابات.

والقليل من الناس الذين لديهم أوقات فراغ ويريدون استغلالها في الدراسة لا يقرؤون إلا القرآن، وبعض التفسيرات المبهمة والتي كأنما وضعت كي لا يفهمها أحد.

وكل دراية هذه الشعوب اختزلت اليوم في القليل من الجغرافيا وبعض الكتب التعليمية غير المترابطة والمملة جدا حول التاريخ الحديث، لأن كل ما يقوله لهم مؤلفوهم عن الأزمان التي سبقت بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) ما هو إلا نسيج من القصص الروائي.

عندما وصلت إلى الجزائر سعيت للتعارف مع السكان الذين لهم إلمام ببعض المعرفة لكنني وجدت أنه من الصعب جدا مصاحبة الأتراك والأهالي، بسبب الإقصاء الفطري الذي يحملونه للأجانب، أكثر منه بسبب الازدراء المفرط الذي يظهرونه للمسيحيين. وقد استطعت في هذه الأثناء الدخول عند الفلكي الأول للدولة الذي كان مكلفا إلى جانب وظائف سامية أخرى بضبط مواقيت الصلاة. لكنني فوجئت كثيرا عندما تبين لي أنه لا يعرف من حساب المثلثات ما يمكنه من رسم عداد شمسي ؛ وأن كل ما يعرفونه في الجزائر وتونس، هو الإبحار مع الاقتصار على معرفة المناطق الثمانية الرئيسية

---

[1] - مفردها فلس (Sol = Sou) : عملة فرنسية قديمة من النحاس أو البرونز تعادل الجزء العشرون من الفرنك.

[2] - سبق وأن وصف الأب دان (Dan) المشهد الاحتفالي نفسه الخاص بالتلميذ المتفوق.

[3] - مفردها سنجاقدار أو صانجاقدار، مرادفها علمدار وبايراقدار انظر: ملحق تعريف المصطلحات والأسماء العثمانية.

للريح، وإعداد خريطة بحرية غير دقيقة. والكيمياء التي كانت قديما العلم المفضل لهذه الشعوب لم يعد لها اليوم مكان عندهم إلا في تقطير ماء الورد. و لم أر إلا عددا قليلا من أطبائهم الذين يعرفون أسماء الأطباء العرب القدامى كالرازي وابن رشد وغيرهم.

أما جهلهم للرياضيات فقد بلغ إلى الحد الذي لا يعرفون فيه المفاهيم الأولية لعلم الحساب وعلم الجبر مع أنه مما لا خلاف فيه أن أسلافهم هم الذين اخترعوا هذا الأخير ونقلوا إلى كامل أوروبا رموز الآخر مع ذلك نجد بين تجارهم الكثير ممن يجيدون الحساب ببراعة حيث يقومون بعمليات جمع وطرح لمبالغ كبيرة اعتمادا على الذاكرة فقط.

خامسا – الدبلوماسي المستشرق فونتيردو بارادي

(Venture de Paradis)[1]:

ولد جون ميشال فونتيردو بارادي يوم 08 ماي 1739 بمرسيليا من أم يونانية، وأب كان يعمل كترجمان في العديد من قنصليات فرنسا بالمشرق، و لم يكد يبلغ الثالثة عشر من عمره حتى استفاد من منحة دراسية إلى باريس لتعلم التركية والعربية، إضافة إلى اللاتينية بمعهد اللغات الشرقية. وبعد خمس سنوات عيّن بمكتب الترجمة بالقسطنطينية، عمل بعدها بعدة وظائف في صيدا والقاهرة والمغرب وتونس مما مكنه من التكلم بلغات هذه البلدان.

أرسل فونتير إلى الجزائر سنة 1788، حيث مكث سنتين فأفاد من أوقات فراغه في متابعة بحوثه حول البربرية التي أثمرت تأليفه لكتاب في قواعدها ومفرداتها، نشر بعد ذلك بخمسين سنة.

شارك فونتير في حملة نابليون بونابارت (Napoleon Bonaparte) على مصر (1798-1799) حيث عهد إليه بكتابة بلاغاته الرسمية للشعب المصري، كما جعله مستشاره لعلاقاته مع وجهاء البلد، توفي فونتير بين عكا (Saint Jean – d'Acre) ويافا (Jaffa) بعدما أصيب بمرض خطير أثناء انسحاب فرق الجيش التي كانت تحاول

[1] – Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIIIè siècle***,op.cit, pp. 9-10, 13-14

الانضمام بمشقة لحامياتها في القاهرة، وكان ذلك قبل 15 ماي 1799، وقد نعاه "بونابارت" قائلا: "لقد مات فونتير إنها لخسارة كبيرة لنا".

يعتبر فونتير أحد أكبر مستشرقي القرن الثامن عشر، نادى بضرورة تشجيع دراسة اللغات الشرقية في فرنسا، وقد ساعدت ملاحظاته القيمة حول السكان وحكامهم، والحضر والبدو، والتجارة والعملات، والجيوش والدبلوماسية، والقرصنة في الإعداد للمغامرة الاستعمارية ضد المغرب[1] (Maghreb)، ومع ذلك ستبقى إحدى أهم المصادر الأكيدة والدقيقة الخاصة بتاريخ دول شمال إفريقيا في نهاية القرن الثامن عشر.

1- من سكان الجزائر:[2]

أ- قبائل فليسة وزواوة :

معظم الجبال التي تمتد ، من مملكة سوس[3] (Sous) حتى سهل القيروان، تسكنهـــــا أقوام مستقلة. نصيب الجزائر منها كثير، لكن أشهرها قبائل فليسة[4] وقبائل زواوة[5] التي لم يستطع النظام الحاكم في الجزائر التغلب عليها وإخضاعها في وقت من الأوقات، وتمتد جبال فليسة من دلس حتى القل، أما جبال زواوة فهي تمتد أكثر إلى

---

[1] – اعتراف صريح من جوزيف كوك (Joseph cuoq) الذي جمع مذكرات وملاحظات فونتير وقدم لها باستفادة الدول الاستعمارية من مؤلفات الأوروبيين الذين أقاموا لفترة ما تحت أي شكل من الأشكال في شمال إفريقيا، لاحتلال هذه الدول ونهب خيراتها. انظر: الصفحة الأخيرة من الغلاف لكتاب فونتيردوبارادي

Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIIIè siècle***,op.cit.

[2] – لقد عرّب الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه محمد عثمان باشا، جزءً كبيرا من مذكرات فونتيردوبارادي. انظر : أحمد توفيق المدني، ***محمد عثمان باشا– داي الجزائر، 1766–1791***، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص ص 161-187.

وبالطبع هذه المقتطفات التي قمت بتعريبها هي من الجزء الذي تركه الأستاذ المدني دون تعريب انظر:

Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIIIè siècle*** ,op.cit, pp. 118,119.

[3] – نسبة إلى وادي سوس، جنوب المغرب، طوله 180كلم.

[4] – قبائل فليسة تتألف من عشائر البربر الواقعة ما بين برج منايل ودلس، وقد ظلّت هذه القبائل ذائعة الصّيت بتمردها على السلطات التركية وعصيانها لها.

[5] – زواوة : لفظة عامة تشير إلى قبائل جرجرة.

الجنوب، وتمتلك قريبا من ثلاثمائة قرية ولا يؤدون خراجا ولا جزية، ولكنهم يغالون في الحرب فيما بينهم، ولا يتحدون إلا ضد العدو المشترك، و مع ذلك يأتون إلى مدينة الجزائر ويشكلون فرقة تمثلهم لها امتيازات، يُعهد إليها بتسيير دورية ليلية، ويحكم قبائل فليسة كذلك شيوخ مميزون.

ويبدو أن القبائليين يأخذون مكانا وسطا بين العشائر المتوحشة والأمم المتحضرة. وهم يتبعون الدين الإسلامي ومع ذلك لا يفهمون القرآن، وأغلبهم لا يعرفون سوى لغتهم الركيكة جدا، والمحدودة جدا والتي ليس لها أي لفظة معنوية وهم بالكاد يستطيعون العد حتى الألف، وليس لهم لا كتابا ولا كتابة، وحفظ الأحداث التاريخية لا يتم إلا عن طريق الرواية والجبال المنيعة التي يعيشون فيها تجعلهم في مأمن من كيد الأتراك ولكنهم في حروب أبدية مع بعضهم البعض، والأضعف فيهم يدعم من القائد التركي الأقرب له، والذي يستغل هذا الانقسام الحاصل بينهم ليُفْنيَهم، وحقدهم شديد ولا يهدأ إلا بالدم[1].

ب- الجيجليون :

أهل جيجل هم أول من استقبل الأتراك في الجزائر، وقدم لهم جميع علامات الإخلاص وعليه فهم يتمتعون بالامتيازات نفسها التي يحظى بها الأتراك المشارقة باستثناء الأجرة. فلهم الحق في حمل السلاح، ويستطيعون الاكتساء بالملابس المطرزة بالذهب وهو أمر محظور على غيرهم من الأهالي.

ويستطيعون التقاتل مع الأتراك، ويحق لهم تملك المومسات مثلما يحق ذلك للأتراك دون أن يقبض عليهم المزوار[2] لهذا السبب.

---

[1] - وصف حمدان بن عثمان خوجة طبائع البربر وعاداتهم في كتابه المرآة، وأخبر عن الحروب المتعددة بينهم حيث يحرق المنتصر دار المهزوم، وأن قُراهم الواقعة في الجبال الوعرة منيعة لا يصلها العدو إلا بشق الأنفس وهم على العموم أناس أقرب إلى التوحش، والذين يحسنون أداء الشعائر الدينية من بينهم يعتبرون كالعلماء عند أهل المدن. أنظر : حمدان بن عثمان خوجة، ***المصدر السابق***، ص ص . 61-68.

[2] - المزوار (Mezouar) أو (Mesüar) عند الأب دان : لم أقف على هذه اللفظة في اللغة العثمانية، وأظنها من العامية الجزائرية وأصلها عربي(مبالغ في الزيارة) أو بربري وتوجد حتى الآن عائلات جزائرية تحمل لقب مزوار. وغالبية الأوروبيين في كتبهم يجعلونها مرادفة للجلاّد. وعند فونتير أحد نواب رئيس الشرطة =

ولهم أمين خاص بهم، والداي وحده من يستطيع محاكمتهم ومعاقبتهم وقد عُهد إليهم بمخابز البايلك التي توفر الخبز لليولداش والعبيد.

ج- المزابيون :

يُشكل المزابيون فرقة منفصلة لها أمين من قومهم وهم الذين يملكون جميع مطاحن الدقيق ومخابز المدينة والحمامات العامة وجباية ضرائب اللحوم ويتمتعون بامتيازات أكثر من الأهالي.

د- البسكريون :

أناس بسكرة هنا هم حرّاس الغنائم، والملاّحون والحمّالون والخدم.

2 - تدابير حفظ النظام العام[1] :

أ- الخروج أثناء الليل :

لنعد إلى قوانين الشرطة المعمول بها في مدينة الجزائر، على جميع السكان أن يأووا إلى مساكنهم بعد ساعة ونصف من غروب الشمس وهو الوقت الذي يؤدون فيه الصلاة الأخيرة التي تدعى صلاة العشاء. وأي شخص يلقى عليه القبض بعد هذه الساعة إذا عثر عليه في المدينة دون فانوس، وحتى هذا الفانوس لا يعد إجازة مرور إلا للأطباء والجراحين أو لأناس معروفين. غير أن الأوروبيين لهم حرية السير بالفانوس في أي ساعة من الليل وهو الوقت الملائم للاجتماع فيما بينهم لأنهم في النهار يصادفون سكان البلد الذين يستطيعون إهانتهم دون أن يتعرضوا للعقاب أو على الأقل يستعملون الجزء المبلط من الشارع ويجعلونهم يمشون في الوحل.

ب- السجون :

السجون في مدينة الجزائر ما هي إلا مكان، ينتظر فيه المحكوم عليه بعض الوقت إلى حين صدور الحكم حيث يساق أحد اليولداش الذين ارتكبوا ذنبا إلى منزل آغا

-يرأس دورية ليلية ومكلف بتنفيذ الأحكام وله سلطة المراقبة المباشرة على البغايا، ويشغل هذا المنصب أحد الأهالي.

[1] - Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIIIème siècle***,op.cit, pp. 253-258

الانكشارية والذي يدعى عادة آغا الهلالين، ويضرب بالعصا أو يشنق وغالبا ما تنفذ عقوبة الإعدام ليلا. أما تنفيذ عقوبة الضرب بالعصا فتتم على كلا القدمين في غرفة تسمى سركه جي أو ظه سي، أي الغرفة الموزعة للخل[1]، وهذا على الأرجح بسبب الخل والملح الذي يستعمل على الطبقة الميتة من جلد الشخص الذي تلقى العقوبة[2] وقليل هم اليولداش الذين لم يزوروا منزل آغا الهلالين.

وعلاوة على سجن آغا الإنكشارية، المخصص لأهل البلد لا غير، يوجد سجن بقصر الداي حيث يودع الأهالي واليهود أو النصارى الذين ارتكبوا بعض الجرائم في انتظار صدور الحكم الذي لا يلبث أن ينطق، فيحرق اليهود الذين يستحقون الموت والقصاص الذي ينتظرهم هو النار، والفصل والشنق والكلاليب، والإعدام للنساء يكون بالإغراق في الماء، واليهود الذين يستأهلون الموت يُحرقون دائما حيث تنصب المحرقة في باب الواد وهو كذلك المكان نفسه الذي يعاقب فيه المسيحيون.

أما الأهالي ففي باب عزون حيث يشنقون أو تقطع رؤوسهم بالكيفية نفسها التي يعاقب بها المسيحيون، أما الكلاليب فهي للأهالي فقط في الحالات الخطيرة جدا وهي معلقة في السور على جانبي باب عزون حيث يُرمى عليها المذنب الذي يبقى معلقا من إحدى جوارحه حتى يموت تحت تأثير الألم الجسمي الشديد والعذاب المريع[3]، والداي

---

[1]- الصحيح هو غرفة بائع الخل، انظر: ملحق التعريف بالمصطلحات والأسماء العثمانية، ومنها أخذ اسم سجن سركاجي الشهير

[2]- يقول فونتير في موضع أخر : أنه عهد إلى الأسرى المسيحيين الذين يستأجرون الحانات بصنع مؤونة الخل التي يحتاجها الباليك لقراصنته و معسكراته وحامياته و بما أن حانات الأسرى كانت داخل السجن و بالتالي صناعة الخل - التي ترتبط بصناعة الخمور التي يجيدونها و يحتكرونها- تتم بإحدى غرفه ثم يباع لإحتياجات الإيالة حسب الاتفاق فيتضح من ذلك أن هذا هو سبب تسمية الغرفة بغرفة السركه جي و ليس ما ذهب إليه دو بارادي، انظر: Venture de Paradis, ***Tunis et Alger au XVIIIème siècle***,op.cit, p. 130

[3] - تعذيب فضيع وعقاب شديد لا تقرّه شريعة ولا دين، والغريب أن أقساه هو من نصيب أهل البلد الأصليين !

الحالي[1] لم يقض بعقوبة مماثلة إلا في أقل الأحيان وشرطة المزوار هم الذين يقومون بعمليات الشنق والإحراق والإلقاء على الكلاليب والإغراق.

وعندما يتعلق الأمر بقطع الرؤوس، فإن التنفيذ يتم أمام باب قصر الحكومة، ويقوم به أحد اليولداش من نوبتجية الباب والتركي لا يشعر بأي خزي إذا قطع الرؤوس، ولكنه أمر مخجل وشائن لو قام بشنق رجل ما أو خنقه أو إغراقه. والمرأة المسلمة التي تباغت مع مسيحي يُقضى عليها بالموت غرقا، أما العبيد فيشنقون خارج باب سجن البايلك.

والمزوار المكلف بدورية ليلية، وقائد الزواوة الذي عهد إليه كذلك بدورية ليلية لهما سجن مخصص لحجز الأشخاص الذين يتم القبض عليهم لارتكابهم بعض الأخطاء أو لسيرهم بعد العشاء بلا فانوس وكل من يدخل السجن مجبر على دفع مبلغ من المال حسب الخطأ الذي اقترفه ولكن إذا كانت الحالة خطيرة فإن القضية تحال إلى الداي...

ب- الجلادون:[2]

إن مهنة الجلاّد بمدينة الجزائر لا تعتبر مهنة خاصة ولا شائنة، فعندما يدان عربي بقطع رأسه، يقاد إلى موضع صغير جدا أمام قصر الداي، ويقوم أحد نوبتجية الباب بضرب عنقه وعندما يتعلق الأمر بشنقه يربط أحد شرطة المزوار الحبل في عنقه أو يعهد إلى أول يهودي أو مسيحي مار بتنفيذ عملية الشنق.

والأتراك المشارقة تصعب عليهم عملية الشنق أو الخنق ولكن كل واحد منهم يهتم عن طيبة خاطر بالضرب بالعصا وقطع الرؤوس.

وتوجد بمدينة الجزائر ثلاثة أماكن تتمتع بالحصانة هي زاوية سيدي عبد الرحمن في ضاحية باب الواد، إلى اليسار عند الخروج على رُبوة.

---

[1] – هو محمد عثمان باشا، داي الجزائر من 1766 حتى 1791.

[2] – كلمة جلاّد في العثمانية هي نفسها كما في العربية لفظا وكتابة ومعنىً، ويقوم بهذه المهنة أحد الجنود الحراس على باب قصر الداي، أو أحد أفراد دورية المزوار، الذين يجبرون اليهود أو المسيحيين على القيام بعملهم في غالب الأحيان، وهذا دليل على خطأ الكتاب الأوروبيين الذين جعلوا لفظة المزوار مرادفة للجلاّد .

وزاوية سيدي عبد القادر خارج باب عزون، حيث يلجأ هناك الأتراك الذين ارتكبوا بعض الاغتيالات، ومن هناك يلتحقون بأحد الأشخاص من المعسكرات التي توجد خارج المدينة.[1]

وثالث زاوية هي زاوية دده وليّ، الذي أنبأ عن العاصفة التي أغرقت أسطول شارل كينط والمجرم الذي يلجأ إلى هذه الزوايا، لا يستطيع أحد إخراجه بالقوة، سواء كان تركيا أم من الأهالي، وحتى اليهودي أو النصراني إلا في حالة ما إذا كان للحكومة مصلحة خاصة في قتل الجاني، حيث يوضع على باب الزاوية حرّاس يمنعون عنه الماء والطعام، فيجبره الجوع على الاستسلام من تلقاء نفسه لسلطة العدالة.

[1] – يستسلم إلى قائد المعسكر الذي يكون في حملة ضد القبائل المتمردة أو يتجه إلى أحد البايات يطلب عفوه و جواره.

خـــاتمة

لقد حاولت جهدي خلال كامل المدة التي استغرقها هذا البحث المتواضع أن أحيط بجميع جوانب الموضوع الذي ألزمت نفسي بدراسته و الخوض في أعماقه، فتطرقت إلى أغلب الرحلات الأوروبية التي كانت وجهتها الجزائر خلال العهد العثماني و عرفت بأصحابها و أبرزت دوافعهم المعلنة و الخفية التي حملتهم على زيارة الجزائر و الكتابة عنها.

كما تناولت الأحوال السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية للجزائر كما ذكرها الرحالة الأوروبيون ولو بشيء من الإيجاز لأن وضع صورة كاملة وواضحة للجزائر في العهد العثماني من خلال بعض الرحلات الأوروبية لم يكن هدفا في حد ذاته و مع ذلك فقد أظهرت النماذج المترجمة عن أهم و أشهر الرحلات جوانب مهمة من الواقع الجزائري في ذلك العهد.

و مع ذلك لم أكن راضيا تماما عن عملي هذا،لأنني كنت آمل أن أفيض فيه قدر الإمكان بالرغم من توسع الموضوع و تشعبه بحيث يمكن لكثير من عناصره أن تكون مواد في حد ذاتها لمواضيع مذكرات أو رسالات أخرى.

ولعلي بهذا التقصير الذي يدل على استيلاء النقص على جملة البشر، أكون قد فتحت المجال واسعا للآخرين ودون قصد، كي يبدؤوا من حيث انتهيت.

و في الختام لا يسعني إلا تلخيص أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث و هي:

1- كنت أتوقع أن تكون كتابات و تآليف الرحالين الأوروبيين عبارة عن افتراءات ومبالغات لا تمت بصلة للواقع الجزائري في ذلك العهد نتيجة أحقاد بعضهم على الأتراك و الأهالي على السواء و كذلك للأحكام المسبقة للبعض الآخر على سكان وحكام الجزائر.

فإذا بي أجدها في غالبيتها تستحق عناء مطالعتها، لاحتوائها على الكثير من الحقائق المهمة ما عدا بعض الرحلات كتلك التي قام بها رجال الدين والتي كشف عن زيفها الأوروبيون أنفسهم فكان تعميمي خطأ استدركته في الحين.

2- تأثرت كثيرا بكتابات دار ندا و بفايفر و كاثكارت و وجدتها مثالا للمصادر التاريخية التي يمكن أن نثق بها ، بعد الأثر الطيب الذي تركته في نفسي نتيجة تعاطيهم الصادق مع الوقائع والأحداث وتفاعلهم معها، و هم جميعا من الأسرى الذين أقاموا مدة طويلة داخل المجتمع الجزائري فخبروا خفاياه ومع ذلك لم يتجنوا عليه كذبا و لا زورا، و لذلك من الممكن أن أتوجه في دراساتي اللاحقة إلى كتابات الأسرى خصوصا.

3- لا زالت العديد من الرحلات غير مكتشفة حتى الآن بالرغم من أهميتها كرحلة هارك أولوفس"مغامرات خاصة" الذي وصل إلى حد زيارة البقاع المقدسة مع سيده باي قسنطينة حيث مازالت غير مترجمة حتى الآن لا إلى العربية و لا إلى أي لغة مقروءة بالجزائر كالفرنسية و الإنجليزية (سأعمل على ترجمتها إلى العربية مستقبلا إن شاء الله) وبالتالي لمالا تكون هناك كتابات أخرى لم تكتشف بعد؟ خاصة و أن عدد الأسرى كان كبيرا جدا و من المحتمل أن يكون من بينهم العديد من المثقفين الذين دونوا مذكراتهم و لم نطلع عليها حتى الآن.

4- الرحلات الفرنسية أو التي ترجمت إليها عن لغات أخرى ، لم تستغل كما ينبغي بالرغم من معرفة أغلبية الدارسين للغة الفرنسية و حتى التي ترجمت إلى العربية بها العديد من المعلومات و الحقائق التي لم تستغل كذلك .

فحبذا لو تترجم جميع هذه الرحلات إلى العربية مع دراسة وافية لجميع محتوياتها.

5- الرحلات الأوروبية مصدر أساسي لكتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني وتقدم معطيات في غالب المجالات قلما نجدها في الرحلات العربية والمحلية لاسيما في المجال السياسي والاجتماعي .

تعريف المصطلحات والأسماء العثمانية[1]

آستانه (أستانه أو أستانه): الباب العالي (حكومة السلاطين الأتراك) ● العاصمة، القسطنطينية.

استانبول: من اليونانية eistènpolin إلى المدينة وهي القسطنطينية.

آغا: سيد، رب العمل ● رئيس، قائد● حاكم ● مولى شخصية بارزة.

يكيجري آغاسي : القائد العام للإنكشارية.

آغا قبوسي: إقامة القائد العام للإنكشارية.

آغا الهلالين : هو من كبار الضباط المتقاعدين، و يتولى منصب رئاسة الديوان لمدة شهرين قمريين فقط مما أكسبه هذا اللقب.[2]

أفندي (افندى) من اليونانية authendés: السيد، معلم، رب العمل● لقب يمنح للمثقفين الذين لا يحظون بلقب باشا أو باي● وهو كذلك لقب لأمراء السلالة العثمانية الحاكمة.

أمير الأمراء (مير الأمرا): رتبة تعادل الرتبة الثانية (صنف ثاني) وهي أدنى رتبة تقابل لقب الباشا.

---

[1] – لقد حرصت على تعريف كل المصطلحات و الأسماء العثمانية التي وردت في البحث سواء كانت في المتن أم في الهامش. ماعدا بعض أسماء العلم و الكنى التي لم أقف على معناها. كما أرجعت الكلمات العثمانية التي حرفت نطقا أم كتابة إلى أصلها الصحيح بالعثمانية و يأتي بين قوسين بعد الكلمة مباشرة، و قد وضعت العلامة ● للتفريق بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة.

[2] – أحمد السليماني، *المرجع السابق*، ص. 32.

إنكشارية (يكى جرى و تقرأ يني تشري): من يكى (جديد) وجري (الجيش أو الميليشيا) أي الجيش الجديد.

●اسم يطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها الترك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي. و أصبحت أكبر قوة عندهم مكنتهم من الفتوح الواسعة التي قاموا بها في ذلك القرن و في القرون التالية. و يرجع تنظيم أولئك الجنود إلى السلطان أورخان (726 هـ -1326م) ابن سلطان عثمان و خلفه.[1]

أوزون : طويل

أوظه: غرفة، حجرة، قاعة.

إياله (ايالت): إقليم، ولاية، مقاطعة وتطلق خاصة على الأقاليم العثمانية قبل تكوين الولايات.

بابا: أب● لقب تشريف وتوقير يطلق على الشيوخ أو الأشخاص أصحاب المكانة أو الوظيفة المحترمة● وفي البحرية العثمانية ينادي البحارة القبطان بهذا اللقب (بابا).

باي (بك و تلفظ باي و ليس كما يلفظها المشارقة بك و بكوات في الجمع و هو خطأ شائع عندهم): سيد، رئيس● أمير

● لقب تمييزي يمنح لأصحاب الأنساب ولأولاد الباشاوات وللضباط القادة وللشخصيات الهامة من المفوضيات الأوروبية.

بايلر باي (بكلربكى): رتبة مدنية تقابل لقب الباشا وتعادل الرتبة الأولى (صنف أول).

بايلك (بكلك): لقب الباي● إمارة.

بولوك باشى (أو بولك باشى): وتتكون من مقطعين بولوك وهي السرية وباش أي **الرئيس. وهو ضابط في الجيش العثماني قبل التنظيمات يسهر على حفظ الأمن العام.**

باشا: لقب يمنح لأصحاب الرتب المدنية العالية في الدولة وهم: الوزير، بايلرباي الروملي، ميرميران، مير الامرا وكذلك مارشالات وجنرالات الجيش.

---

[1] – ابراهيم زكي خورشيد و أحمد الشنتناوي و محمد ثابت الفندي، *المرجع السابق*، ص. 76.

بكطاش (بكتاشي) : كل من ينتمي إلى الطريقة الصوفية التي أسسها الحاج بكتاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر للميلاد.

الجيبجي (جايه جي و تلفظ تشابه جي): من جايه (كلمة لاتينية) أي المعول، ومعناها الذي يحفر بالمعول وهو جندي تابع لفيلق خاص بالجيش العثماني القديم.

جزائر الغرب (جزايرغرب) : الجزائر ويطلق عليها كذلك، للتمييز بينها وبين جزائر الشرق (جزاير شرق) وهي جزر بحر ايجه.

جلبى (وتلفظ تشلبي) : سيد ● شريف، نبيل● لقب يعطى للأوروبيين.

حجي (حاجي): حاج.

خزناجي: أصلها خزينه دار أو خزندار وحرفت في العامية الجزائرية إلى خزناجي وهو الخازن أو أمين الخزانة (بيت مال الدولة).

خوجات جمع مفرده خوجه (خواجه و تقرأ خوجه) : سيد ● معلم مدرسة، مدرس ●وتطلق كذلك على كل شخص يلبس العمامة.

داي (دايي): وهو الخال● لقب يطلق خاصة على ربان السفينة، ثم صار يطلق على حكام الجزائر في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني.

دده: الجد● لقب يطلق على الدرويش الدوار.

دلى: مجنون، معتوه● مندفع.

ديوان: الملك ووزراؤه● المجلس الأعلى للحكم ●لفظ فارسي من معانيه البلاط الملكي ومجالس الحكم و الإدارة ● و في الإدارة العثمانية بالجزائر كان يطلق على **مجلس كبار ضباط الإنجشارية الذين لا يقل عددهم عن سبعمائة شخص، حيث تتخذ القرارات السياسية المهمة.**[1]

رئيس: كما في العربية وحرفت في العامية الجزائرية إلى رايس.

[1] – مصطفى أحمد بن حموش، *المرجع السابق*، ص. 271.

السباهية أو الصبايحية (سپاهى أوجاغى): فرقة عسكرية من الفرسان تابعة للجيش العثماني. وأصلها من سپاهى رجل عسكري● فارس يملك إقطاعة.

سركه جى: بائع الخل. من سركه أو سيركه: الخل.

سنجاقدار: حامل الراية أو اللواء ومرادفها علمدار وبيراقدار.

سوكلي: لم أقف على معناها.

شواش: جمع مفرده شاوش (جاوش وتلفظ تشاوش): بواب، حاجب● رقيب في الجيش.

الطوبيجي (طوپجى): مدفعي (جندي في المدفعية).

عبدي : عبد كما في العربية و الياء تضاف عند الإعراب في حالة المفعول به أو المضاف.

العربه جى (عربه جى): حوذي (سائق عربة خيل) في فرقة عسكرية.

عروج (أوروج): الصيام، أوروجلى (أوروجلو) : الصائم.

غلام : طائفة من أسرى الحرب يستعملون أحيانا في سلك الجندية عندما تقوم الحرب. ويطلق هذا الإسم كذلك على الصبيان الذين يخدمون الحاكم و حاشيته و حرمه في قصره[1].

قرط: هو نبات البرسيم (نبات كلئي) و يرجح ان تكون الكنية أو الإسم هي قورت ومعناها الذئب أي قورت علي وحرفت أثناء الترجمة إلى العربية إلى قرط علي.

قليان: لم أقف على معناها.

كتشاوة (كجي اووه و تلفظ كتشي أوفه): من كجي أي الماعز واووه أي السهل. سهل الماعز وقد أخذ المسجد إسم السهل الذي كانت الماعز ترعى فيه قبل أن يبنى عليه المسجد.

---

[1] - مصطفى أحمد بن حموش، *المرجع السابق*، ص. 274.

كراغلة (قول أو غلى): وهم ذرية العبيد الذين كونوا نوع من الميليشيا، وقول : هو العبد أو الجندي. وفي الجزائر هم الأبناء الذين أنجبهم العثمانيون من زواجهم بنساء من الأهالي.

كتخذا: وهي كلمة فارسية تطورت في العثمانية إلى كهيا وهو رئيس طائفة أو جماعة أو أهل حرفة● أمين صندوق● شخص يتولى إدارة بعض مصالح رجال الدولة.

كور : أعمى.

مهمة دفتري (مهمه دفترى): الدفتر أو السجل الذي توثق به شؤون الدولة المهمة و العاجلة و التي يتم التعامل معها بمقر الخلافة العثمانية استانبول.

نوبتجية (نوبتجي): جندي رصد● ضابط أو مسؤول حراسة.

همايوني: ملكي، إمبراطوري.

وجاق (أوجاق): نار الموقد● منزل ● عائلة، أسرة مالكة، دولة.

مغرب أوجاقلري: دول شمال افريقيا.

يكيجري أوجاقي : فرقة الإنكشارية.

يولداش: رفيق في السفر● زميل في سرية جيش.

خير الدين باشا الذي صارت الجزائر في عهده إحدى إيالات الدولة العثمانية

(عن كتاب محمد عثمان باشا لأحمد توفيق المدني)

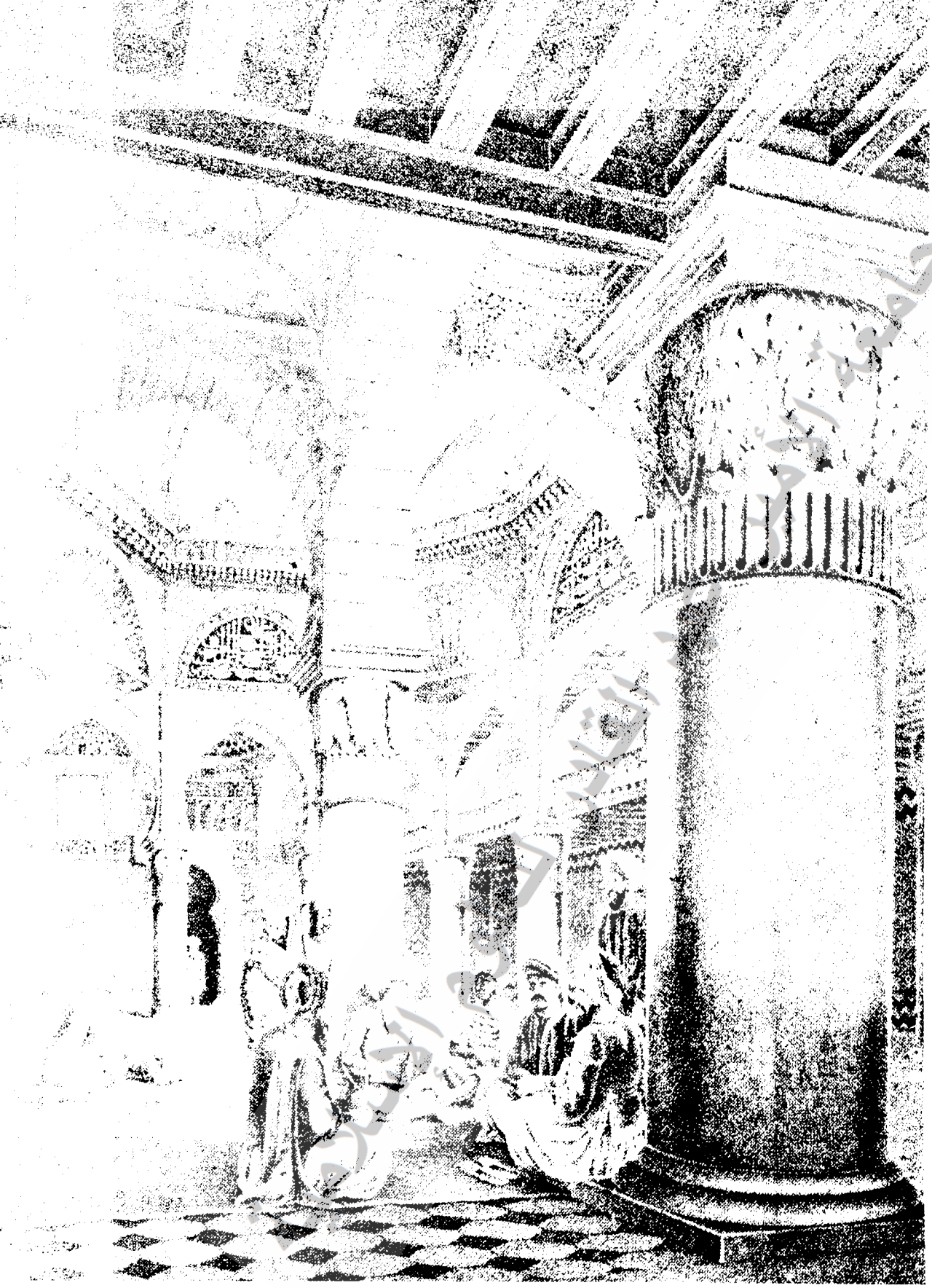

مسجد كتشاوة أحد مساجد مدينة الجزائر الخاصة بالأحناف والتي إعتبرها هايدو مدارس لتعليم اللغة التركية

(عن كتاب محمد عثمان باشا لأحمد توفيق المدني)

صفحة العنوان للطبعة الثانية من كتاب الأب بياردان **Histoire de Barbarie et de ses corsaires** التي صدرت بباريس سنة **1646** وتظهر في الصورة إحدى عمليات الافتداء التي كان يقوم بها آبـــاء الرهبنة.

(عن الموقع الإلكتروني : **www.Algérie_ancienne.com**)

إمانويل دارندا صاحب المغامرة العجيبة بمدينة الجزائر

(عن كتاب **Les captifs d'Alger** لإمانويل دارندا)

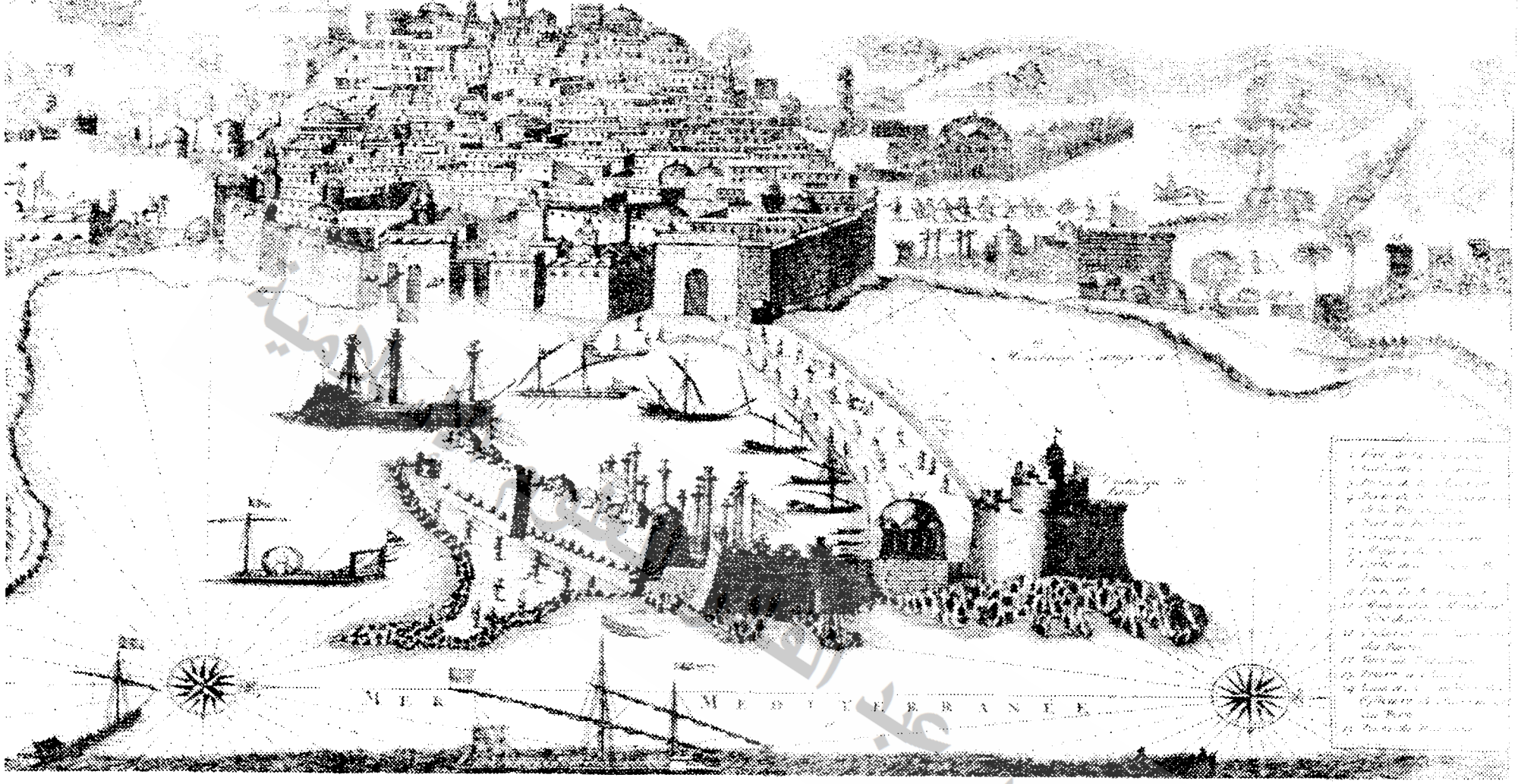

مدينة و مرسى الجزائر كما وردا في كتاب لوجيي دوتاسي Histoire du royaume d'Alger، أمستردام، 1725، مقابل الصفحة 123

و يظهر الرصيف الذي أنجزه خير الدين باشا فربط جزيرة البنيون باليابسة

(عن كتاب Corsaires et marchands لجيرارد فان كريكن)

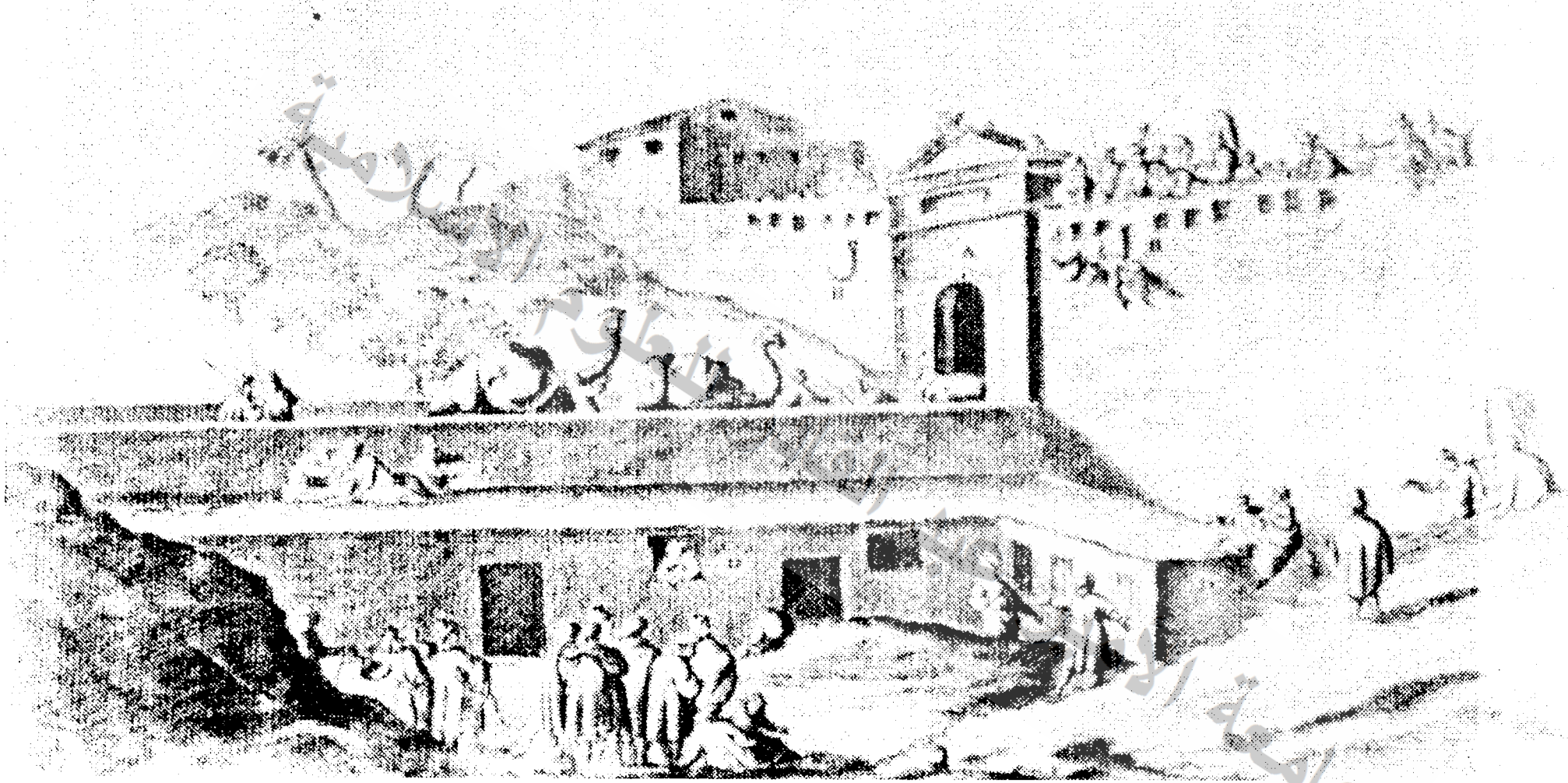

منظر من باب عزون بمدينة الجزائر، حيث ترى الكلاليب المعلقة في السور والتي يرمى عليها المذنب فيبقى معلقا من إحدى جوارحه حتى يموت

حسين باشا داي الجزائر الذي طرده الفرنسيون سنة 1830 فأنهوا بذلك العهد العثماني ودخلت الجزائر مرحلة تاريخية جديدة.

(عن كتاب **Main basse sur Alger** لبيار بيون)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر والمراجع

أولا - المصادر باللغة العربية :

- القرآن الكريم

1- بفايفر سيمون، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تعريب أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

2- ابن حمادوش الجزائري (عبد الرزاق)، الرحلة المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

3- ابن خلدون (ابو زيد ولي الدين عبد الرحمن...)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ت.

4- خوجة (حمدان بن عثمان)، المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982.

5- خوجة (علي رضا أفندي بن حمدان بن عثمان)، وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال، تعريب أحميدة عميراوي، جامعة منتوري، قسنطينة، 2000.

6- شالر وليام، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر، تعريب إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1982.

7- الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.

8- كاتكارت (جيمس ليندر)، مذكرات أسير الداي، ترجمة إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

9- مجهول المؤلف، غزوات عروج وخير الدين، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934.

10- الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1983.

ثانيا - المصادر باللغة الأجنبية:

1- Dan Pierre (le père), histoire de barbarie et de ses corsaires, Pierre Rocolet, Paris, 1637.
2- D'Aranda Emanuel, les captifs d'Alger, Casbah, Alger, 2004.
3- De Haëdo Diego, Topographie et histoire générale d'Alger, traduction de Dr. Monnereau et A. Berbrugger, Bouchene, Paris, 1998.
4- De la Faye Jean et autres, relation en forme du voyage pour la redemption des captifs aux royaumes de Maroc et d'Alger pendant les années 1723, 1724 et 1725, Bouchène, Paris, 2000.
5- De Paradis Venture, Alger au XVIII[e] siècle (1788-1790), mémoires, notes et observations d'un diplomate- espion, Grand- Alger livres, Alger, 2006
6- De Paradis Venture, Tunis et Alger au XVIII[e] siècle, Sindbad, Paris, 1983.
7- Desfontaines Louiche René, fragments d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, tome second, librairie de Gide, Paris, 1838.
8- De Tassy Laugier, histoire du royaume d'Alger, loysel, Paris, 1992.
9- Pananti Filippo, relation d'un séjour à Alger, le normant, Paris, 1820.
10- Poiret (l'Abbé), voyage en barbarie, première partie, de la rochelle, Paris, 1789.
11- Shaw Thomas, Voyage dans la régence d'Alger, traduit par J. Mac Carthy, Bouslama, Tunis, s.d.

ثالثا - المراجع باللغة العربية:

1- التر (عزيز سامح)، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.

2- بالحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1981.

3- البوطي (محمد سعيد رمضان)، مشورات اجتماعية، دار الفكر، دمشق، 2001.

4- التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، الطبعة الثانية، تونس 1985.

5- حلاّق حسان و سعد الدين محمد مير ، المناهج العلمية في كتابة الرسائل الجامعية (كيف تكتب بحثا او رسالة أو أطروحة)، دار بيروت المحروسة، بيروت، 1994.

6- ابن حموش (مصطفى أحمد)، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني

الجزائري (956 هـ/ 1549م - 1246 هـ/ 1830م)، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 2000.

7- دودو أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

8- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1981.

9- سعد الله فوزي، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، دار الأمة، الجزائر، د.ت.

10- سعيدوني ناصر الدين، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر- العهد العثماني-، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

11- السليماني أحمد، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، دحلب، الجزائر، 1994.

12- الصلابي (علي محمد)، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2001.

13- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي – 1830/1514 -، دار هومه، الجزائر، 2005.

14- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، الجزء الثالث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999.

15- عميراوي أحميدة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني-مذكرات تيدنا أنموذجا-، دار الهدى، عين مليلة، 2003.

16- عناية غازي، إعداد البحث العلمي (ليسانس، ماجستير، دكتوراه)، دار الشهاب، باتنة، 1985.

15- الغزالي محمد، ليس من الإسلام، دار المعرفة، الجزائر، د.ت.

16- فارس (محمد خير)، تاريخ الجزائر الحديث –من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي-، مكتبة دار الشروق، بيروت، د.ت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

17- فيلالي (مختار بن الطاهر)، رحلة الورتلاني، دار الشهاب، باتنة، 1998.

18- قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، 2002.

19- متولي (أحمد فؤاد)، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002.

20- المدني (أحمد توفيق)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1976.

21- المدني (أحمد توفيق)، محمد عثمان باشا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

22- الميلي (مبارك بن محمد)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثاني، مكتبة النهضة الجزائر، 1963.

23- نايت بلقاسم (مولود قاسم)، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، الجزء الأول، دار البعث، قسنطينة، 1985.

24- وولف (جون.ب)، الجزائر وأوروبا، ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

رابعا - المراجع باللغة الأجنبية:

1- Beaud Michel, l'art de la thèse, (comment préparer et rédiger une thèse de doctorat de magister ou un mémoire de fin de licence), Casbah éditions, Alger, 1999.

2- Brahim Denise, Opinions et regards des européens sur le Maghreb aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} siècles, société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1978.

3- Chevalier Corinne, les trente premières années de l'état d'Alger 1510-1541, office des publications universitaires, Alger, 1986.

4- De Grammont Henri- Delmas, Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Bouchene , Paris, 2002.

5-Fisher Godfrey (Sir). légende barbaresque, traduit par Farida Hellal, office des publications universitaires, Alger, 2000.

6- Grand-Champ pierre, une mission délicate en barbarie au XVII[e] siècle (Jean-baptiste Salvago, drogman vénitien, à Alger et à Tunis,1625), J. Aloccio, Tunis, 1938.
7- Kaddache mahfoud, l'Algérie durant la période ottomane, office des publications universitaires, Alger, 1991.
8- Malki Nour-eddine, Marmol Carvajal et ses sources arabes, actes du deuxième colloque international sur Ibn Khaldoun, Frenda, 1986, centre national d'études historiques, Alger, 1986.
9- Merouche Lemnouar, recherches sur l'Algérie à l'époque Ottomane (I. Monnaies, prix et revenus 1520-1830), Bouchene, Paris, 2002.
10- Péan Pierre, main basse sur Alger, Chihab, Alger, 2005.
11- Rheinheimer Martin, Der fremde sohn, Wachholts, Auflage, 2003.

12- Van Kriken Gérard, corsaires et marchands- les relations entre alger et les pays- bas (1604-1830) , Bouchene, Paris, 2002.
13- Vayssettes Eugène, histoire de Constantine sous la domination turque de 1517-1837, Bouchene, Paris, 2002.

خامسا - الموسوعات:

1- البستاني بطرس، دائرة المعارف، المجلد الثامن، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، تهران، د.ت.

2- خورشيد إبراهيم زكي و الشنتناوي أحمد و الفندي محمد ثابت، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ، المجلد الثالث، انتشارات جهان، تهران،د.ت.

سادسا - المعاجم:

1- ادريس سهيل و عبد النور جبور، المنهل "قاموس فرنسي/عربي"، دار الآداب/دار العلم للملايين، ط7، بيروت، 1983.

2- البستاني بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977.

3- التليسي (خليفة محمد)، النفيس من كنوز القواميس، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، د.ت.

4- كلكيان ديران، قاموس فرانسوي مصور تركجة دن فرانسزجه يه لغات، مهران، مطبعة سي، إستانبول، 1911.

5- ابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، المجلد الحادي عشر، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1994.

6- Marlet philippe dir., Le petit larousse illustré, larousse, 100e édition, Paris, 2004.

سابعا - الدوريات باللغة العربية :

1- آبار ميشيل، الجزائر في القرن الساع عشر لرحالة إسكتلاندي، ترجمة حنفي بن عيسى مجلة الثقافة، عدد 3، الجزائر، 1971.

2- بالحميسي مولاي، المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني، مجلة الأصالة، عدد 15/14، الجزائر، 1974.

3- بوباكير عبد العزيز، الرحلات الروسية إلى الجزائر، حوليات جامعة الجزائر، عدد 10، الجزائر، 1997.

4- بوعياد محمود، آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، عدد 47، الجزائر، 1978.

5- بوعياد محمود، رحالة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع، مجلة الأصالة، عدد 42، الجزائر، 1975.

6- بونوسلفاتوري، وضع الجاليات الأوروبية في المغرب قبل الاستعمار، مجلة الأصالة، عدد 25، الجزائر، 1975.

7- التميمي عبد الجليل، الدفاتر التركية والعربية في الجزائر، مجلة الأصالة، عدد 15/14، الجزائر، 1974.

8- التميمي عبد الجليل، الغرب كما يراه حسونة الدغيس الطرابلسي سنة 1834، المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، تونس، 1976.

9- حسين (حسني محمود)، دراسات في ادب الرحلة عند العرب، مجلة الأصالة، عدد 32، الجزائر، 1976.

10- دودو أبو العيد، المؤرخون الألمان والجزائر، مجلة الأصالة، عـــدد 15/14، الجزائـــر، 1974.

11- دي إيبلزا ميكال والوسلاتي الهادي، ملاحظات أب إسباني يزور وهران في عهـــد مصطفى بوشلاغم، المجلة التاريخية المغربية، عدد 12، تونس، 1978.

12- الشريف محمد الهادي، المصادر الأوروبية لتاريخ المغرب الحديث، المجلـــة التاريخيـــة المغربية، عدد 32/31، تونس، 1983.

13- الصباغ ليلي، وضع الجاليات الأوروبية في العالم العربي والإسلامي إبـــان الحكـــم التركي، مجلة الأصالة، عدد 25، الجزائر، 1975.

14- الطيبي أمين، لمحة عن الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط (إيالة الجزائر) في القـــرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي من خلال رحلتي الحسن بن محمد الوزان وعلي بن محمد التمقروتي، المجلة التاريخية المغربيةن عدد 40/39، تونس، 1985.

15- العربي إسماعيل: بجاية من خلال النصوص الغربية، مجلة الأصالة، عدد 19، الجزائر، 1974.

16- العربي إسماعيل، قصف الأسطول البريطاني للجزائر وأثره في الأدب الإنجليزي، مجلة الثقافة، عدد 42، الجزائر، 1978.

17- ميسوم عبد الإله، الجزائر في مسرحيات سيرفانتس، مجلة الثقافة، عدد 64، الجزائر، 1981.

18- الوسلاتي الهادي، المستشفى الترينيتاري الإسباني بتونس ووثيقة من أرشيفه عن حملة العثمانيين بالجزائر سنة 1756 على تونس، المجلة التاريخية المغربية، عدد 22/21، تـــونس، 1981.

ثامنا- الدوريات باللغة الأجنبية.

1- Audisio Gabriel, recherche sur l'origine et la signification du mot "Bagne", revue africaine, tome CI, Alger, 1957.

2- Berbrugger .A, un voyage de Paris à Alger en 1731 par le sieur Tollot, revue africaine, tome 11, n° 66, Alger, 1867.

3- De Grammont (Henri-Delmas), le nom de Barberousse dérive-t-il de Baba Arroudj ? revue africaine, N°29, Alger, 1885.
4- Emerit Marcel, description de l'Algérie en 1787, revue d'histoire maghrébine, n° 4, Tunis, 1975.
5- Fendri Mounir, tois voyageurs allemands en Tunisie au XVIII[è] siècle, revue d'histoire maghrébine, n° 35/36, Tunis, 1984.
6- Grandchamp Pierre, le prétendu voyage de William Lightgow dans les états de Barabie (1615-1616), revue africaine, tome 88, n° 412/413, Alger, 1947.
7- Hees Thomas, journal d'un voyage à Alger (1675-1676), traduit par G-H Bousquet et G.W Bousquet Mirandolle, revue africaine, tome CI, Alger, 1957.

تاسعا - المحاضرات :

1- راينهايمر مارتن، هارك أولوفس الأسير الدانماركي في الجزائر، في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، محاضرة عامة باللغة الانجليزية، يوم 2004/05/27. لخصها وطبعها مترجمة إلى العربية أثناء إلقائها د. أحميدة عميراوي.
2- سعد الله أبو القاسم، الحياة التعليمية والثقافية في الجزائر في العهد العثماني في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، ألقيت على طلبة الماجستير، قسم التاريخ، تخصص تاريخ الجزائر العثماني، يوم 2003/05/04.
3- سعد الله أبو القاسم، النظم والمؤسسات في العهد العثماني، في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، ألقيت على طلبة الماجستير، قسم التاريخ، تخصص تاريخ الجزائر العثماني، يوم 2003/05/03.

تاسعا - المواقع الإلكترونية :

1- http://www.algérie_ancienne.com/
2- http://www.artchives.samsara_fr.com/
3- http://www.islamweb.net
4- http://www.sahab.net
5- http://www.saudiaramcoworld.com/

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة	1
الفصل الأول: الرحلات الأوروبية و الجزائر العثمانية	12
أولا: تعريف الرحلة و أنواعها	14
1- تعريف الرحلة لغة.....	14
2- تعريف الرحلة إصطلاحا	15
3- أنواع الرحلة	16
أ- الرحلة الاستطلاعية	16
ب- الرحلة السياسية	16
ج- الرحلة العلمية	17
د- الرحلة الدينية	17
ثانيا: بداية الرحلة الأوروبية نحو الجزائر وظروفها	18
1- الرحلة الأوروبية في العهد الزياني	18
2- الرحلة الأوروبية خلال العهد العثماني وتنوعها	21
أ- الرحلة الفردية	22
ب- الرحلة المنظمة	23
ج- الرحلة الاضطرارية	23
3- وجهة الرحّالة الأوروبيين ومدة إقامتهم.....	24
أ- رحلات القرن السادس عشر.....	26
ب- رحلات القرن السابع عشر	26

ج- رحلات القرن الثامن عشر 28
د- رحلات القرن التاسع عشر (حتى 1930) 31
4- تواصل الرحلات بعد العهد العثماني 31
ثالثا: القيمة التاريخية للرحلات الأوروبية 32
رابعا: درجة الاعتماد على المادة الخبرية لهذه الرحلات..... 34
الفصل الثاني : دوافع رحلات الأوروبيين نحو الجزائر 42
أولا: الدوافع السياسية 42
1- توثيق العلاقات السياسية 43
2- الجوسسة..... 46
ثانيا : الدوافع العلمية 52
ثالثا :الدوافع الإنسانية و الدينية 57
رابعا : الدوافع السياحية و الثقافية 63
خامسا : الدوافع الاقتصادية 66
الفصل الثالث : أهم الجوانب التي تناولتها رحلات الأوروبيين عن الجزائر 70
أولا : معطيات عن الحياة السياسية 71
ثانيا : لمحات عن الواقع الاجتماعي 78
ثالثا: نظرات على الوضع الاقتصادي 80
رابعا : آراء حول الحياة الثقافية..... 84
خامسا: لمحة عن الحياة الطبيعية 88
الفصل الرابع : مقتطفات من أشهر الرحلات 90
أولا : الأب بياردان 91
1- التراهة العجيبة لأحد قضاة الجزائر 92
ثانيا : الأسير إمانويل دارندا 97
1- الحاجة أمّ الاختراع 98

ثالثا: مساعد القنصل لوجيي دوتاسي 102
1- أخلاق وعادات الجزائريين 102
رابعا: الدكتور توماس شو 108
1- العلوم و الفنون في إيالة الجزائر..... 109
خامسا : الدبلوماسي المستشرق فونتير دوبارادي 111
1- من سكان الجزائر 112
أ- قبائل فليسة وزواوة 112
ب- الجيجليون 113
ج- المزابيون 114
د- البسكريون 114
2- تدابير حفظ النظام العام 114
أ- الخروج أثناء الليل 114
ب- السجون 114
ج- الجلادون 116
خاتمـــــــة 118
تعريف المصطلحات و الأسماء العثمانية 120
المصادر و المراجع 132
فهرس الموضوعات 140

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية